

الدكتور
عبد الحكيم محمود

الطريق إلى الله

«كتاب الصدق» لأبي سعيد الخراساني



دار المعارف

الدكتور
عبد الحليم محمود

الطريق إلى الله

”كتاب الصدق“ لأبي سعيد الخراساني

الطبعة الخامسة



دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبوسيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.٢٠٠٤ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

«كل مافاتك - من الله سوى الله - : يسير ، وكل حظ لك ،
سوى الله قليل .»

بهذه الحكمة البالغة التي نطق بها أبو سعيد : نبتدئ الحديث عنه ،
ولانبتدئ بهذه الحكمة اعتباطاً ، ولكن لأنها محور تفكيره .
لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتها ؛ فاخطت لنفسه
طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله ، رضى الله عنهم .
لقد ابتدأ - كما تبتدئ الصفوة المختارة - باحثاً منقّباً عن الله ،
فوجده ظاهراً في آثاره :

لقد وجده في النسمة العليلة ، وفي الزهرة الندية ، وفي النجم
المتألق ، وفي شعاع الشمس الذهبي ، لقد وجده في الخير ، وفي
الجمال ، وفي الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته ، كما يصف هو ،
فيقول :

«والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء ، ولا يتسلى عنه بشيء ، ويتبع
آثاره ، ولا يدع استخباره»

وكثيراً ما أنشد تعبيراً عن حاله أيضاً :

أسألكم عنها ، فهل من محبّر ؟ فإلى ينعم - مذنات دارها - علم !

فلو كنت أدري أين خيم أهلها ؟ وأى بلاد الله - إذ ظعنوا ^(١) أموا ^(٢) !
إذن لسلكنا مسلك الريح خلّفها ولو أصبحت نعم ، ومن دونها النجم !
وكثير من الناس من يُفيض الله عليه النعم ، ويمنحهم من جوده
فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ ،
غير متجهين إليه سبحانه .. !

أما أبو سعيد : فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئاً آخر .. إنه يعبر عن
منهجه حين يقول :

« ينبغي أن يكون فرحك في العطاء : بالمعطي ، ولذتك في
اللذات : بمخالق اللذات ، وتعمك في النعم : بالمنعم دون النعم ، لأن
ذكر النعمة ، عند ذكر المنعم : حجاب ، ورؤية النعمة ، عند رؤية
المنعم : حجاب » ويشرح حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :
« جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .. »
فيقول : « واعجباً لمن لم ير محسناً غير الله ، كيف لا يميل بكليته إليه » !!
وفي الاتجاه إلى الله : نعيم لا يعدله نعيم ، ولذة لا تعدلها لذة ...
وإذا نعم الناس بلبس يلبى ، أو بمطعم لا تلبث حلاوته أن تزول ؛ فإن

(١) ظعنوا : ارتحلوا وسافروا .

(٢) أموا : قصدوا وانجهوا .

لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار !!^(١) .
 إن لهم نعيمهم الروحي ، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب
 الطاهر .

يقول أبو سعيد :

« إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول إلى
 قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم
 من كل كائن » فعيش أبدانهم : عيش الجنانين (أهل الجنة) ،
 وعيش أرواحهم : عيش الربانين » .

ولاعجب ، بعد ذلك ، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخذان ،
 أن يكون أنس أي سعيد بالله ؛ ولاعجب أن يكون حديثه عن الأنس
 بالله : يمتاز بالدقة والوضوح .

يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله : ماهو ؟ :

« استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوؤها : في
 سكونها إليه ، وأمنها : معه ، من حيث الروعات ، وإعفاؤه لها من كل
 مادونه : أن تشير إليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولا تحمل
 جفاء غيره »

(١) الأوضار : جمع وضر ، والوضر : وساخته الدسم واللن . . . القاموس .

حياته :

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى
تقريباً ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد أحمد بن عيسى
الخراز .

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسرياً السقطى ، وبشر بن
الحارث ، ونظراءهم .

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

« هو : من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم »
ويذكر أنه قيل :

« إنه أول من تكلم فى علم الفناء » .

أما صاحب الخلية ، فإنه يقول عنه :

« ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب
المذكورة ، والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت
بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء »
ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريباً : بأنه روى الحديث التالى
بإسناده :

« سوء الخلق : شؤم ، وشراركم : أسوؤكم أخلاقاً » .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .
ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين .

رأيه في المعرفة :

يهدف الصوفية دائماً ، إلى معرفة ما وراء الطبيعة معرفة يقينية ،
ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

إنها - حسبما يرى أبو سعيد - : «تأتى القلب من وجهين : من عين
الجود ، ومن بذل المجهود»

إنها فيض من الله ، وإنها اكتساب وجهه ، وفي الوصول إليها
السعادة ، بيد أن طريقها - وهو نفس الطريق إلى الله - : ليس سهلاً
هيناً ، وإذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافهاً .

كيف نصل إلى الله ؟ ماهو الطريق إليه ؟ كيف نصل إلى خالص
العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله ، فبين أنه :

التوبة ؛ ثم ذكر شرائطها ؛ ورسم الطريق الذي يرسمه الصوفية ؛
وهو : طريق نفساني سيكولوجي ؛ من أدق مايكون ، يتنقل فيه الإنسان
من مرحلة إلى مرحلة ؛ متقيماً من مقام التوبة ؛ حتى يصل إلى مقام
المحبين ، ويترقى إلى مقام المقربين .

فاذا وصل إلى هذه المرحلة ؛ أدمنت روحه النظر في النعمة ؛

وفكرت في الأيادي والإحسان ، فانفردت بالذكر؛ وجالت في ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، وارادة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة . فتعمت وسعدت .

ولنذكر ذلك بأسلوبه ، نقلا عن كتاب : «حلية الأولياء» :
قال أبو سعيد :

«إن أوائل الطريق إلى الله : التوبة»

وذكر شرائطها .

«ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف .

ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء .

ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين .

ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين .

ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين .

ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين .

ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين .

ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء

ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين .

وذكروا لكل مقام عشر شرائط ، إذا عاناها وأحكمتها ، وحلت

القلوبُ هذه الحلة : أدمنتِ النظر في النعمة ، وفكرت في الأيادي والإحسان .

فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح في ملكوت عزه
بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ،
وإليه في محبته ناظرة .

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سوادَ الليل أنساً نذكره وشوقاً إليه ، غيرَ مستكره الصبر
ولكن : سروراً دائماً ، وتعرضاً وقرعاً لباب الرب : ذى العز والفخر
فحالمهم : أنهم قربوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ،
ونورت قلوبهم ، لكى ينظروا إلى ملك عدن ؛ بها ينزلون ، فتأهوا بمن
يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتفون .

حلوا فلم يظعنوا ؛ واستوطنوا محلته ، فلم يرحلوا ، فهم الأولياء ،
وهم العاملون ، وهم الأصفياء ، وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب ، هم به آمنون ؟ وعزوا في غرف ، هم
بها ساكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فلمثل هذا فليعمل العاملون »
فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة ، هل يتأق له أن يعلم ما يخالف

الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل إليها ، يخالف الظاهر ؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة ؟ !

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة :

(١) حلية الأولياء المجلد العاشر ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

كل باطن يخالف ظاهراً : فهو باطل .

* * *

وكتاب الصدق - وهو الوحيد الذى بقي من آثاره^(١) ، والذى نقدمه اليوم ، مغتربين ، إلى القراء - : كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لا يصح أن تبذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ، لا يستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء .

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم - فى دقة وفى وضوح - الطريق إلى الله^(٢) ! !

عبد الحليم محمود

(١) لقد كان كتاب الصدق ، هو الكتاب الوحيد إلى عهد قريب جداً . ثم اكتشف الأستاذ آربرى مجموعة من رسائل الحرار ، ضمن مخطوط يحتوى على كتب ورسائل صوفية . ولقد حقق الأستاذ الدكتور قاسم السامرائى ما يخص الحرار فيها ، وشر فى مجلة المجمع العلمى العراق . المجلد الخامس عشرة سنة ٦٧ كتاب الصفاء ، وكتاب الضياء ، وكتاب الكشف والبيان ؛ وكتاب الفرع ، وكتاب الحقائق محزاه الله حير الجزاء . وقد وقعت هذه الكتب فيما يقرب من أربعين صحيفة .

(٢) كتب الإمام الأكبر رضى الله عنه بعد ذلك مقدمة مختصرة للطبعة الثالثة من الكتاب ، تقتطف منها ما يلى .

إن المسلمين الأول علموا الحقيقة البديهية . وهى : أن المجتمعات ، لاتقوم إلا على الأخلاق .

لقد كان واضحاً فى أذهانهم ، ما قاله شوقى رحمه الله :

.....

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
لقد كتبوا - رضوان الله عليهم - كثيراً في الأخلاق ، ليبينوا لذلك الأمة الإسلامية ،
لتكون في مراكز القيادة في هذا الجانب .

وأخذ الكتاب ينشرون الفكرة الإسلامية ، من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية
الشريفة ، وسلوك الرسول ﷺ ومن تبعه من الراشدين المهديين .
وبعض الكتّابين التزم في ذلك القرآن والسنة فحسب ، كما فعل الإمام النوى رضوان الله
عليه في كتابه النفيس «رياض الصالحين» وكما فعل الإمام الخافظ المدري في كتابه المبارك .
«الترغيب والترهيب»

وبعض الكتّابين اتخذ القرآن والسنة أساساً ، ثم استفاد في ذكر آراء الأسلاف السابقين ،
وذكر حكايات عنهم : تهدي الإنسان إلى الرشد ، وتقوده إلى الصراط المستقيم .

من ذلك : الكتاب الخالد «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي .
وكل كتب الأحاديث ، وكل كتب تفسير القرآن ، إنما هي على وجه العموم - تربية
للشخص تسيّر به إلى المثل الأعلى .

وهذا المثل الأعلى ، إنما يتمثل في معنى كلمة «الإسلام» أي العبودية المطلقة لله سبحانه
وتعالى ، والخضوع المطلق له وحده .

وإنما يتمثل ذلك في قوله تعالى لرسوله الكريم :
(قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَكْتُ وَمَحَيَّيْتُ وَمَاتَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شريك له وبذلك أُمرْتُ وأنا
أول المسلمين) .

إن الهجرة إلى الله : أساساً وبواعث ، وغاية وأهدافاً وكيفية ، يضمها كتاب الله وسنة
رسوله .

وماتضمنه كتاب الله وسنة رسوله معصوم :
(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) .
ومن أجل ذلك : تثبت أسلافنا - رضوان الله عليهم - بهذه العصمة ، وكتبوا في ذلك ، =

.....
= متخذين القرآن ، وسلوك رسول الله ﷺ وأقواله : القدوة الحسنة ، والأسوة الكريمة .

واهتدى بهديهم ملاحصر له من الأفراد .

وخلف من بعدهم خلوف : اتجهوا - في عصرنا الحاضر- إلى «أوربا» يستمدون منها السلوك . وتفرقت بهم الطرق ، وتشتت هم الأهواء ، وفسد بهم وآراهم الكثير .

وكان لابد من العودة إلى النهج السلي

ومن هنا ، كان حرصنا على نشر هذا الكتاب النفيس «كتاب الصدق» .

والله نرجو أن يهدي له ، وأن يهدي به ، وأن يجعله من اللبئات التي يتكون منها الجو

الأخلاقي الذي يعتصم بالله سبحانه وتعالى :

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

كتابُ الصدُق

لأبي سعيد الخراز

سَبِيلُ النِّجَاةِ

الإِخْلَاصُ

الصَّبْرُ

الصَّدَقُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .
قال الشيخ الإمام العارف : أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي
الحرّاز قدّس الله روحه ، ونور ضريحه :
قلت لبعض العلماء : أخبرني عن الصّدق ، كيف هو ؟ وما معناه ؟
وكيف العمل به ، حتى أعرفه ؟
فقال : الصّدق اسم للمعاني كلها ، وهو داخل فيها .
أنجب أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله أم أشرح لك
العلم والعمل بالأصول التي بها تقوم الفروع ؟
قلت : أريد الأمرين جميعاً ؛ ليكون ذلك علماً لي ، وفقهاً ،
ونصرة .

فقال : وفقت ، إن شاء الله !
اعلم : أنّه لا بدّ للمريد - المحقّق في إيمانه ، والمطالب لسلوك سبيل
النجاة - من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها ، فبذلك يقوى إيمانه ، وتقوم
حقائقه ، وتثبت فروعه ، فتصفو ، عند ذلك ، الأعمال وتخلص ، إن
شاء الله :
فأولها الإخلاص :

لقول الله ، عز وجل : (فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) ^(١) .

وقال تعالى : (فادعوا الله مخلصين له الدين) ^(٢)
وقال لمحمد ﷺ : (قل : إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مَخْلَصاً لَهُ الدين) ^(٣)

وقال : (قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مَخْلَصاً لَهُ ديني) ^(٤)
وقال جل ذكره : (واذكر في الكتاب موسى ، إنه كان مخلصاً ، ^(٥)
وكان رسولاً نبياً) .

ونحو هذا في القرآن كثير ، وفي هذا مقنع .
ثم الصدق :
لقول الله ، عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا مَعَ الصادقين) ^(٦)

وقال تعالى : (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) ^(٧) .

(١) سورة الزمر . ٢ ، ٣ .

(٢) سورة غافر : ١٤ .

(٣) سورة الزمر : ١١ .

(٤) سورة الزمر : ١٤ .

(٥) سورة مريم : ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللام .

(٦) سورة النوبة : ١١٩ .

(٧) سورة محمد عليه السلام : ٢١ .

وقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)^(١)
 وقال تعالى : (واذكر في الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق
 الوعد)^(٢)

وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم)^(٣)
 وقال تعالى : (والصادقين والصادقات)^(٤)
 وهذا كثير في القرآن .
 ثم الصبر :
 لقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا)^(٥)
 وقال تعالى : (وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)^(٦)
 وقال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله)^(٧) .
 وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)^(٨)
 وقال تعالى : (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا)^(٩)

(١) سورة الأحراب : ٢٣ .

(٢) سورة مريم : ٥٤ .

(٣) سورة الأحزاب : ٨٠ .

(٤) سورة الأحزاب من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل : ١٢٦ .

(٧) سورة النحل : ١٢٧ .

(٨) سورة الطور : ٤٨ .

(٩) سورة المزمل : ١٠ .

وقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . يريدون وجهه) ^(١)

وقال تعالى : (واصبروا ، إن الله مع الصّابرين)

وقال تعالى : (وبشر الصّابرين) ^(٢) .

فجعل لهم الكرامة بالبشرى .

وهذا كثير مؤكد في القرآن .

* * *

وهذه ثلاثة ^(٣) أقسام لمعان مختلفة ، وهى داخلة فى جميع الأعمال .

ولا يتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم .

ولا يتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض ، ففى فقد أحدها تعطلت الآخر .

قال : فالإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه .

والصبر لا يتم إلا بالصدق فيه ، والإخلاص فيه .

والصدق لا يتم إلا بالصبر عليه ، والإخلاص فيه .

الإخلاص :

فأول الأعمال : هو الإخلاص .

(١) سورة الكهف : ٢٨

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٥٥

(٣) (١) الإخلاص ، والصدق ، والصبر .

فالفرض الواجب : أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقرّ وتشهد ألاّ إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والخالق ، والبارئ ، والمصور ، والرزاق ، والمحیی ، والممیت ، الذي إليه ترجع الأمور ، وأن محمداً عبده ، ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق ، وبالحق أدوا الرسالة ، وبالفؤا^(١) في النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، والمرد إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويُعذب من يشاء .

ويكون ذلك عقدك^(٢) ظاهراً على لسانك ، بلا شك ولا ريب ، ساكناً^(٣) قلبك مطمئناً إلى ما صدقت به وأقررت .

وكذلك لا يعارضك - في كل ما جاء من عند الله على لسان نبيه ، ﷺ - شك في كل ما ذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبي ، ﷺ^(٤) ، وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذي كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعون من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعاً للجماعة ، مخلصاً في ذلك لله وحده ، لا تريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك ، وإيمانك ، وتوحيدك .

(١) ترقوا فيها إلى أعلى هياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب منه من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وهو الذى أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)^(١)
 فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لا يريدُ بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى ، بجميع أمره ، لا يجب مدح أحد ولا ثناءه ، ولا يفرح بعمله - إذا أُطلع عليه المخلوقون - فإن عارضه^(٢) من ذلك شيء اتقاه^(٣) بالسرعة والكراهية ، ولم يكن^(٤) إليه ، لكن إذا أثنى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه^(٥) حين وفقه لخير رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ؛ وخاف أن تكون سريته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

« السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) ظهر له .

(٣) حفظ نفسه منها .

(٤) بركن ويطمئن .

(٥) ستره عليه رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

السرية والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السرية على العلانية
فذلك الفضل »

فالواجب على العبد أن يحنى عمله ^(١) جهده حتى لا يطلع عليه إلا
الله تعالى . فذلك أبلغ في رضا الله . عز وجل . وأعظم في مضاعفة
الثواب ، وأقرب إلى السلامة . وأوهن لكيد العدو . وأبعد من
الآفات .

وروى عن سفيان الثوري ، رحمه الله ، أنه قال : « ما أعبأ بما
يظهر من عمل »

ويروى في الحديث :

« أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً » ^(٢) :

(١) قوله : أن يحنى عمله . أى الذى لم يطلب الشرع فيه الظهور ، لأن الشاعتر كلها
كالخج والعمره والجماعة في الصلوات و . . الخ . مطلوب فيها الظهور شرعاً .
وأما غير الشاعتر : كالصدقات وعمل البرأيا كان ، فالأمر فيه على ما يأتي : إن كان مرشداً ،
أو قصد الخس عليه تعين إظهاره ليؤدى المطلوب ، كما كان في حديث « من سس سنة حسنة فله
أجرها . وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، ومن سس سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها
إلى يوم القيامة » .

فإظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب .

لكى يحل ذلك إذا آتس من قلبه اتحاهاً إلى الله وحده . ولم يحش تبرد الأمانة بالسوء ،
واليك ميراثاً لمعرفة ذلك الاتحاه وهو :

إن كان المرید أشد فرحاً وتلذذاً به في خلوته فعله ، وإلا فلا .

(٢) وذلك للأعمال التى لم يطلب الشرع فيها الإظهار .

ويروى : « إن العبد ليعمل العمل في السر ، فيدّعه الشيطان
عشرين سنة ، ثم يدعوه إلى أن يظهره ، ويذكره ، فيُنْقَلَ من ديوان
السر إلى ديوان العلانية ، فينقص من ثواب العمل وفضله ، ثم لا يزال
يذكره بذكره أعماله ، حتى يذكرها للناس ، ويتحلى^(١) اطلاعهم
عليها ، ويسكن^(٢) إلى ثنائهم فيصير رثاء^(٣) .

فهذه الأمور : ضدّ الإخلاص ، ومادكرنا : فهو من جملة
الإخلاص الذي لا بد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم
جهله ، وتبقى الزيادة في الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول .
قلت : ثم ماذا ؟

قال : مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لا يرجو إلا الله ، ولا يخاف
إلا الله ، ولا يبتزئ إلا الله ، ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يبالي ،
إذا وافق الأمر الذي فيه محبة الله ورضاه ، من سخطه .
وما بقي من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفي هذا بلاغ للمريدين
السالكين للطريق !

(١) يجد لدة في إطلاعهم عليها .

(٢) يرتاح ويركس

(٣) رياء

الصبر :

والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة فهي ثلاث :
فأولها : الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، في
الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعاً وكرهاً .

ثم الصبر الثاني : هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، ومنع
النفس من كل مامالت إليه بهواها مما ليس لله تعالى ، فيه رضا ، طوعاً
وكرهاً .

وهذان صبران في موطنين : هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .
ثم الصبر الثالث : هو الصبر على النوافل ، وأعمال البر ، مما يقرب
العبد إلى الله تعالى ، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذي رجاه من
ثواب الله ، عز وجل .

وهكذا يروى ، أن النبي ﷺ فيما رواه عن ربه ، عز وجل قال :
« ما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى
بالنوافل حتى أحبه » (١)

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال . قال رسوا الله ﷺ . « إن الله تعالى قال . من
عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ،
وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحسنت كسب سمعه الذي يسمع به ، وبصره
الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولن
استعاذني لأعيذنه » رواه البخاري .

والصبر الرابع : (١) هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعائك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله ، جل ذكره ، إلى العباد ، ولا يجوز لهم رده . فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله ، تعالى ، أمره ! وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لا يسعهم جهله ، ولا بد لهم منه .

وبقى شرح حقائق الصبر وغايته ، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه .

قلت : فالصبر فى نفسه ، ماهو وما موجوده فى القلب ؟

قال : الصبر هو احتمال مكروه النفس .

وموجوده : إذا وقع بالنفس ماتكرهه تجرعت ذلك ، وأنفت

الجزع ، وتركت البث والشكوى ، وكتمت ما نزل بها .

لأنه يروى فى الحديث : « من بث^(٢) فقد شكا »

ألم تسمع الله ، تعالى ، يقول : (والكاظمين^(٣) الغيظ والعافين

= وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : « إذا تقرب العبد إلى شياً تقرب إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً تقرب منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيت هرولة . » رواه البخارى .

(١) هو الصبر الباطن .

(٢) أذاع ونشر سبب الضيق الذى ألم به .

(٣) الذين يحفون غيظهم فلا يظهرونه .

عن الناس (١)

أفلا ترى أنه كظم ما كره ، وشق على نفسه احتماله ، فصار صابراً ؟
فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه (٢) ، ولم يعف عمن أساء إليه :
خرج من حد الصبر على هذا القياس .

قلت : فبماذا يقوى الصابر على الصبر ، وبماذا يتم له ؟
قال : يروى في الحديث :

« إن الصبر عن المكاره ، من حسن اليقين » .

ويروى :

(إن الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله) (٣)
وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى ، وصدق قوله في الذي وعده
وتواعده ، قامت في قلبه الرغبة في ثواب الله تعالى ، الذي وعده ،
ولزمت قلبه الخشية من عقاب الله الذي تواعده ، وصحت عند ذلك
رغبته ، وقامت عزيمته في طلب النجاة مما يخافه ، وهاجت آماله في
الظفر بالذي يرجوه ، فجاء (٤) عند ذلك في الطلب والهرب ، فسكن
الخوف والرجاء قلبه ! فركب عند ذلك مطية الصبر ، وتجرع مرارته عند

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣٤ .

(٢) قابل الإساءة بالإساءة .

(٣) أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب .

(٤) اجتهد .

نزوله ، ومضى فى إنفاذ العزائم ، وحذر من نقصها ، فوقع عليه اسم الصبر .

الصدق :

والصدق اسم لمعان كثيرة :
فأول الصدق هو صدق العبد فى الإنابة ^(١) إلى الله تعالى ، بالتوبة النصوح .

لقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) ^(٢) .
وقال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(٣) .
وقال تعالى : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) ^(٤) .

فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط فى أمر الله تعالى ، ونبيه ، والعزيمة على ترك العود فى شيء مما يكره الله ، عز وجل ، ودوام الاستغفار ورد كل مظلمة للعباد من ما لهم ؛ والاعتراف لله ، تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألا تكون مصححاً ؛ والخوف

(١) أناب إلى الله تعالى : أقبل عليه وتاب .

(٢) سورة النحر : ٨ .

(٣) سورة التور : ٣١ .

(٤) سورة التوبة : ١١٧ .

ألا تقبل توبتك^(١) ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى ، على بعض مايكره ففتك .

وهكذا يروى عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، أنه قال :
ما يؤمنني أن يكون قد رأى على بعض ما يكره ، فقال : إعمل ما شئت
فلا غفرت ؟

ويروى عنه أيضاً أنه قال : أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالى .

(١) إن المؤلف - رضوان الله عليه - يحاول ما أمكن أن يوقظ الضمير الدينى في قوة ، وأن يهر الشعور الروحى هزة تنبه من غفلته . وكلامه متحى إلى من شاب توبته شىء من التردد . ولعل الواجب شرعاً : أن يوقن قبول الله لتوبته ، إذا تاب توبة بصوحاً بشروطها ، لأن في توبة العبد : طلب الغفران من الله تعالى ، وقد جاء :

« ادع الله وأنتم موقنون بالإجابة . » وجاء : عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدي بي » أو كما قال .

والمؤمن لا يئس من روح الله ولا ينفط ، كما جاء في الكتاب الكريم ، وجاء في الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى حاء إلى الله بقراب الأرض ذنوياً ، ولعل الأنسب أن يقال .

إن التوبة لطف من الله تعالى ، الذى أيقظ قلبه لتوبته . لأن المعصية تورثه القسوة ، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومراراة المعصية ، فيستمر إلى أن يموت كافراً ولا يأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولاً ، وأن له أن يتوب ثانياً . وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين : يزير لهم التوبة بعد المعصية ، وقد عفلوا عما ذكر من يقظة القلب قبل المعصية ، وغفلته بعدها . نعم : عليه أن يذكر شبح المعصية ، وأنها تؤدي به ، لولا لطف الله الذى نه وألممه التوبة ، وأنه لا يضمن ذلك بعد أية معصية ، فيستمر في حذر من كيد الشيطان ، إنه عدو مضل مبين .

وبلغني أن بعض العلماء لقي بعض الناس فقال له : تبت ؟

قال : نعم .

قال : قُبِلَتْ ؟

قال : لا أدري

قال : اذهب فادر .

وقال : « يفنى حزن كل ثكلى (١) وحزن الثائب ما يفنى ! »

ومن صدق التوبة : ترك الأخذان والأصحاب الذين أعانوك على
تضييع أمر الله تعالى ، والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعوا
إلى الله .

فهكذا قال الله عز وجل : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا
الْمُتَّقِينَ) (٢)

ومن صدق التوبة : خروج المأثم من القلب ، والحذر من خفايا
التطلع إلى ذكر شيء مما أنبت (٣) إلى الله منه قال الله ، عز وجل :

(١) التي فقدت اسما .

(٢) سورة الرخرف . ومنه قوله تعالى

(ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلي ليتني لم أتخذ
فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ حافني ، وكان الشيطان للإنسان حذولاً) وقوله تعالى
(ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) .

(٣) رجعت تست .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) (١)

واعلم أن المؤمن كلما صحَّح ، وكثر علمه بالله تعالى ، دَقَّت عليه
التوبة أبداً ، ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : «إنه ليغان على قلبي ،
فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة» ؟ (٢)
فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وسكنه النور ، لم يخفَ عليه ما
يدخل قلبه من خفي الآفة ، وما يلزمه من القسوة : من الهمة بالزلة قبل
الفعل ، فيتوب عند ذلك .

(١) عقد القلب على المصيبة - سورة الأنعام ١٢٠

(٢) رواه أحمد وأحمد ومسلم وغيرهما . يغان على قلبي : يغشى عليه .

أَبْوَابُ الصِّدْقِ

- | | |
|----------------------|---------------------|
| في معرفة النفس . | في الحياء من الله . |
| في معرفة العدو . | في شكر الله . |
| في الورع . | في المحبة . |
| في الحلال الصافي . | في الرضا . |
| في الزهد . | في الشوق إلى الله . |
| في التوكل على الله . | في الأُنس بالله . |
| في الخوف من الله . | |

باب

الصدق في معرفة النفس والقيام عليها

قال الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ^(١)) .

وقال تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام ، حين يذكر عنه :
(وما أبرئ نفسي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرْحَمَ رَبِّي ^(٢)) .
وقال تعالى : (وأما من خاف مقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ،
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ^(٣)) .

وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك : نفسك التي بين
جنبك ، ثم أهلك ، ثم ولدك ، ثم الأقرب فالأقرب ^(٤) » .
ويرى عنه ﷺ أنه قال « نفس إن قبيها ^(٥) » ونغمها ^(٦) ذمتها غداً
عند الله » .

(٢) سورة يوسف : ٥٣ .

(١) سورة النساء : ١٣٥ .

(٣) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

(٤) عداوة النفس لأنها أمارة بالسوء إلا مارحمة ربى . وعداوة الأهل ، لعلها من ناحية
الفتنة ، وإنما أموالكم وأولادكم فتنة ، أو أن ذلك محمول على البعض دون الكل ، وإن من
أرواحكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم .

(٥) أطاعها في شهوتها الجنسية

(٦) أحابها إلى ما تشتهى من الشراب والسباع .

قيل له : وماهى ؟

قال : « أنفسكم التى بين جنبيكم » .

فمن صفة الصادق فى القصد إلى الله تعالى : أن يدعو نفسه إلى طاعة الله تعالى ، وطلب مرضاته ، فإن أجابته حمد الله ، تعالى ، وأحسن إليها .

فهكذا يروى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أنهم رأوه يوطئ^(١) شيئاً يفرشه .

فقيل له : ما هذا ؟

قال : نفسى إن لم أحسن إليها لم تحملنى .

وإن لم تجبه إلى ما يرضى الله ، ورآها بطيئة ، منعها محبوبها من العيش ، وخالفها عندما تهوى ، وعادها فى الله ولله ، وشكاها إلى الله ، حتى يصلحها له .

ولا يقيم على ذمها مع الإحسان إليها ، وذكر عيوبها والذم لها ، وما لا يرضاه من فعلها ، مع الإقامة معها على الذى تهواه من الفعل .
وهكذا يروى عن بعض العلماء أنه قال :

« قد علمت أن من صلاح نفسى علمى بمفاسدها » .

وكفى بالمرء إثماً أن يعرف من نفسه عيباً لا يصلحه ، وليس منتقلاً من ذلك إلى توبة .

(١) يمسح .

وقال بعض العلماء : إن كنت صادقاً في ذمك لنفسك : فإن ذمك غيرك بما فيك فلا تغضب .

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء من الشهوات ، أو شغل قلبك في طلب شيء مما حرم عليك وحلى لك ، فاتهمها تهمة من يريد صلاحها ، وامنعها من ذلك منع من يريد استعبادها ، واحملها بالامتناع عن الملاذ على اللحق بمن تقدمها .

فإن الذي نازعتك إليه : لا يخلو من أن يكون حراماً تستحق به السخط ، أو حلالاً ، تستوجب به طول الوقوف على المسألة إذا مضى التاركون للمحرم إجلالاً له وتعظيماً له ، ووقفوا عن الحلال للانكماش^(١) والمبادرة .

فاعمل في قطاع نفسك عن الحالين جميعاً ، فإن من فطم نفسه عن الدنيا ، كان رضاعه من الآخرة ، ومن اتخذ الآخرة أمّاً : أحبّ برّها والورود عليها .

إذا رضى أبناء الدنيا بالدنيا أمّاً ؛ وبرّوها ؛ وسعوا من أجلها ، فارم المؤثرين للدنيا من قلبك بالهجران ، مع النصيحة لهم وتحذيرهم إياها . واحذر التخلف عن السابقين ، وانظر في خاصّة نفسك ، وحثّ على ذلك أصفياءك وبطائنك ، فإن السابقين شمروا وشدّوا المآزر ،

(١) لعل المقصود : للانكماش عن طول الحساب والمبادرة إلى الجنة .

وكشفوا عن الرؤوس والسوق^(١) ، فاغتنموا الصحة ، وبادروا في النشاط ، ورعوا حق الله تعالى ، وحذروا أن يهتكوا سترًا مما نهاهم عنه . وتحببوا إليه برفض ما أباح لهم أخذه ، وتركوا الحرام تعبدًا ، والحلال تقربًا ، وألفوا السهر والظمًا ، وأنسوا إلى التبغ والاجتراء باليسير .

باب

الصدق في معرفة عدوك : إبليس

قال الله ، عز وجل : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)^(٢) .

وقال ، جل وعز : (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ)^(٣) .

وقال تعالى : (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)^(٤) .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « للملك لمة وللشيطان

(١) كناية عن الاجتهاد .

(٢) سورة فاطر : ٦

(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

(٤) سورة المل من الآية : ٢٤ .

لِمْةٌ : فلمة الملك : إبعاد بالخير ، وَلِمْةُ الشَّيْطَانِ : إبعاد بالشر .
وقال في خبر آخر : « إِنَّ الشَّيْطَانَ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ ^(١) ، وَإِذَا غَفَلَ وَسَّوسَ » .

فاقطع مادته بالعزيمة على مخالفة هواك ، وامنع نفسك من الإفراط والتشوف ^(٢) ، فهما خير أعوانه عليك ، وبهما يقوى كيده ، وإذا اتبعتهما فأحضر عقلك وعلمك الذى علمك الله تعالى ، فقم بهما على نفسك ، وراع قلبك وما يقع فيه ، فما كان من أجناس الخير والعلم فاتبعه ، وما كان من جنس الباطل والهوى فانفه بالسرعة ، ولا تماد على الخطرة ^(٣) ، فتصير شهوة ، ثم تصير الشهوة همة ^(٤) ، ثم تصير الهمة فعلاً .

واعلم أن عدوك إبليس لا يغفل عنك فى سكوت ولا كلام ، ولا صلاة ولا صيام ، ولا بذل ولا منع ، ولا سفر ولا حضر ، ولا تفرد ولا خلطة ، ولا فى توقر ^(٥) ولا عجلة ، ولا فى نظر ولا فى غض بصر ، ولا فى كسل ولا فى نشاط ، ولا فى ضحك ولا فى بكاء ، ولا فى إخفاء ولا فى إعلان ، ولا حزن ولا فرح ، ولا صحة ولا سقم ، ولا مسألة

(١) انقبض وانزوى .

(٢) التعلق بالآمال .

(٣) ما يجرى فى القلب من تدبير أمره

(٤) أول العزيمة أو العزيمة ، والهـم بالفتح وحذف الهاء كذلك ، ويحكى ابن فارس

الهـم ما هممت به إذا أردته ولم تفعله (ولعله ما يتطابق مع ما ذكره ابن فارس .

(٥) اتزان ورزانة .

ولاجواب ، ولا علم ولا جهل ، ولا بعد ولا قرب ، ولا حركة ولا
سكون ، ولا توبة ولا إسرار .

ولن يألو جهداً في توهين عزمك ، وفتر نيتك ، وتأخير توبتك ،
ويسوّف بك وقتاً إلى وقت ، ويأمرك بتعميل مالا يضرك تأخير ، يريد
بذلك قطعك من الخير ، ثم يذكرك في وقت شغلك بالبر والطاعة ،
الحوائج ليقطعك عن خير أنت فيه .

ورما حب إليك النقلة من بلد إلى بلد ، يوهك أن غير البلد الذي
أنت فيه أفضل ، ليشغل قلبك ، ويعطل مقامك بما يعقبك الندم إذا
أنت فعلته .

فاحترس من عدوك أشد الاحتراس وتحصن منه بالملجأ إلى الله عز
وجل ، فإنه أمتع الحصون ، وأقوى الأركان ! فاجعل الله تعالى كهفك
وملجأك ، واحذر عدوك عند الغضب والحدة ، فإنك ، إن استقبلك
في هيج الغضب ، ذكر الله تعالى ، وعلمت أنه شاهدك ، أطفأت
بمراقبته نيران العز^(١) وتوقد الحمية ، أجللت من قد علمت : أنه يراك
من أن تحدث في غضبك ما تستحق به غضبه ، فإن الشيطان يغتم منك
هيج الغضب وحمية الشهوة .

وأما حذرك إياه عند الحدة ، فإنه يقال : إن الشيطان يقول : « إن

لحديد من العباد لن نئس منه ، ولو كان يحب بدعائه الموتى ، لأنه تأتى عليه ساعة يحتد ، فنصير منه إلى مانريد « (١) .
« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

باب

الصدق في الورع واستعمال التقيّة

فالصدق في الورع : هو الخروج من كل شبهة ، والتارك لكل ما اشتبه عليك من الأمور .

فهكذا يروى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يكون العبد من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » (٢) .

قال عليه السلام : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتهيات فمن ترك الشبهات مخافة أن يقع في الحرام فقد استبرأ لعرضه » (٣) .

(١) ولهذا ، لما ذهب رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أوصني قال : لا تنفس ، كرر ذلك ثلاثاً ،

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٣) وفي رواية أخرى : « الحلال بين ، والحرام بين وبينها أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات : فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وقال ابن سيرين ، رحمة الله عليه : ما في ديني شيء أيسر من الورع . كل ما اشتبه عليه تركته .

وقال الفضيل ، رحمه الله ، يقول الناس : الورع شديد ؛ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فخذ ما حل وطاب من الأشياء ، وابدل المجهود في طلب الشيء الصافي من الحلال .
لأن الله عز وجل ، قال : «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً» (١) .

وقال النبي ﷺ ، لسعد ، رضي الله عنه : « إن أردت أن يحبب الله تعالى دعاءك ، فكل الحلال » (٢) .

وقالت عائشة ، رضي الله عنها : « يا رسول الله ، من المؤمن ؟ قال : من إذا أمسى نظر من أين قرصه » (٣) .

(١) سورة المؤمنون ٥١ .

(٢) وفي حديث آخر : أن النبي ﷺ « ذكر الرجل يطيل السفر ويرفع يديه إلى السماء بالدعاء ، يقول : يارب ، يارب ، ومأكله حرام ، وملبسه حرام ، فأني يستجاب له ؟ » .
(٣) قرصه : رغيه . أي من أين أكله .

باب

الصدق في الحلال الصافي ، إذا وجدته ، وكيف العمل به ؟

فالصدق في الحلال - إذا وجدته - : أن تأخذ منه مالا بدّ منه على قدر معرفتك بنفسك ، وما يقيم مِلْكُها ، ولا تحمل عليها فوق طاقتها فتنتقطع ، ولا تصبر معها إلى ما تنهوا من السرف ، ولكن خذ ما يقيمك بلا تقصير ولا سرف في الطعام واللباس والمسكن ، واحذر الفضول مخافة الحساب وطول الوقوف .

فهكذا يروى : أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب ، رضى الله عنه : « يا أبا الحسن ، صف لنا الدنيا فقال : حلالها حساب وحرامها عذاب أو عقاب » .

فإذا كان العبد ضعيفاً^(١) ، ثم ملك الشيء الطيب ، حبسه على نفسه وعلى من يمين^(٢) ، فأنفق منه بالمعروف مخافة أن يكون ، إذا أخرجه لم يصبر ، وجزع ؛ فوقع فيما هو أردى منه ، فكان في حبسه إياه

(١) ضعيف العزيمة والسكون إلى الله .

(٢) يعول .

مزيياً^(١) ، على نفسه من ادّخاره ، حين عدم من نفسه الثقة بالله تعالى ، والسكون إليه دون الشيء ، فيكون كذلك حتى يقوى عزمه . قلت : فكيف مَلَكَ الأنبياء ، عليهم السلام ، الأموال والضياع ، مثل داوود ، وسليمان ، وإبراهيم ، وأيوب ، ونظرائهم ، ويوسف عليه السلام ، على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ ، والصالحين من بعد ؟ فقال : هذه مسألة كبيرة . وفيها كثير ؟

اعلم أنّ الأنبياء ، عليهم السلام ، والعلماء ، والصالحين من بعدهم . رضى الله عنهم أماء الله تعالى ، في أرضه على سرّه وعلى أمره ونهيه وعلمه . وموضع وديعته . والصحاء له في خلقه وبريته . وهم الذين عَقَلُوا عن الله تعالى . أمره ونهيه . وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم . وإلى مانديهم^(٢) ؟ فوافقوه في محبته . ونزلوا في الأمور عند مشيئته ، ثم وقفوا عند ذلك مواقف العبيد الألباء ، القابلين على الله ، والحافظين لوصيته . وأصغوا إليه نآذانٍ فهوهمم الواعية . وقلوبهم الطاهرة . ولم يتخلفوا عن نديته^(٣) . فسمعوا الله ، عزّ وجلّ . يقول : (آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ)^(٤) . ثم

(١) مكرأ على نفسه فعلها إذا اطمأنت إلى الشيء وعدمت الثقة بالله ، ويستمر في إكباره عليها حتى يقوى عزمه .

(٢) دعاهم .

(٣) دعوته

(٤) سورة الحديد . ٧ .

قال : (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، مِنْ بَعْدِهِمْ ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (١)) .

وقال تعالى : (اللَّهُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ) (٢) .

وقال تعالى : (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) .

فأيقن القوم : أنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك ماخولهم ومملكهم ، فإنما هو له ، غير أنهم في دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى في هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين سمع :
(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ (٣) لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) (٤)

قال . ياليتها تمت ؟ ! يعنى عمر ، قبل قراءة : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ) : فَهَمَّهُمْ ، يقال في التفسير : عجز في التلاء عجزاً (٥) .

ومعنى قول عمر رضى الله عنه : « ياليتها تمت » يعنى : لم يخلق ، حين سمع الله تعالى ، يقول : (لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) .

(١) سورة يونس : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٤ .

(٣) وقت من الزمن .

(٤) سورة الدهر .

(٥) عجز عن مواصلة القراءة ، وهو تفسير لمهمهم .

وذلك من معرفة عمر ، رضى الله عنه ، بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه ، وعجز العباد عن القيام به ، وقيام الحجة لله تعالى عليهم ، عند تقصيرهم ، وما تواعدهم به ، إذا ضيعوا .
ويروى عن الحسن . رضى الله عنه أنه قال : « إن الله تعالى ، إنما أهبط آدم ، عليه السلام ، إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجنًا له ، حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار » .
فمن ملك - من أهل العمل عن الله تعالى ، وأهل الصدق - شيئاً من الدنيا فهو معتقد أن الشيء لله جلّ وعزّ ، لا له ، إلا هو من طريق حقّ مأخوله^(١) الله تعالى ، وهو مبلى به حتى يقوم بالحقّ فيه ، لأنّ النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، ويستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والضراء : هو اختبار وبلاء ، حتى يصبر عليه ، ويقوم بحق الله تعالى فيه .

وكذلك قال بعض الحكماء : « العلم كله بلاء حتى يعمل به » قال الله ، عزّ وجلّ : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، لِيَبْلُوَكُمْ »^(٢) .
وقال : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ، حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ، وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ »^(٣) .

(٣) سورة القتال : ٣١ .

(١) مأخوله مأعطاء .

(٢) سورة الملك .

فالأنبيا صلوات الله عليهم ، والصالحون ، من بعدهم . الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم في الدنيا بالسعة ، وخولهم . كانوا إلى الله ، جلّ وعزّ ، ساكنين ، لا إلى الشئ ، وكانوا خزاناً لله ، جلّ ذكره ، في الشئ الذي ملكهم ، ينفذونه في حقوق الله تعالى ، غير مقصرين ، ولا مفرطين ، ولا متوانين ، ولا متأولين على الله التأويل ، وكانوا غير متلذذين بما ملّكوا ، ولا مشغولي القلوب بما ملّكوا ، ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن سليمان بن داود عليها السلام ، في ملكه . وما أباحه الله تعالى من الكرامة ، حين يقول تعالى : « هذا عطاؤنا ، فامنن أو امسك بغير حساب » (١) . قال أهل التفسير : لا حساب عليك في الآخرة ، وإنما كان عطاء هيناً إكراماً من الله ، عز وجل له .

فذكر العلماء : أن سليمان عليه السلام : « كان يطعم الأضياف الحواري (٢) النقي ، ويطعم عياله الخشكار (٣) ويأكل هو الشعير » . وكذلك روى العلماء : أن إبراهيم الخليل ، صلوات الله عليه : « كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فرما لا يأتيه ثلاثة أيام الضيف »

(١) سورة ص : ٣٩ .

(٢) الحواري . لباب البر وخالص الدقيق .

(٣) الخشكار : خشن الدقيق

فيطويها . وربما كان يمتنى الفرسخ ^(١) . أو أقل أو أكثر ، تلقياً للضيف » .

قال : « وكان أيوب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع أحداً يحلف بالله تعالى ، إلا رجع إلى منزله فكفر عنه » ^(٢) .

وروى العلماء : أن يوسف ، عليه السلام : كان على خزائن الأرض ، فكان لا يشبع ، ف قيل له في ذلك ، فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجياع » .

ولقد روى أن سليمان ، عليه السلام : « بيما هو ذات يوم ، والريح تحمله ، والطير تظله ، والجن والإنس معه ، وعليه قيض جديد ، فلصق ببدنه ، فوجد اللذة ، فسكنت الريح ووضعت على الأرض . فقال لها : مالك ؟

ف قالت : إنما أمرنا أن نعطيك ما أطعت الله . ففكر في نفسه من أين أتى ؟ فذكر ، فراجع ، فحملته الريح » . ولقد روى : « أن الريح كانت تضعه في اليوم مرات ، من هذا وأشباهه ! ! » .

فالقوم : كانوا خارجين من ملكهم في ملكهم ، ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ممالكوا ، لا يستوحشون من فقدته إن

(١) الفرسخ . ثلاثة أميال .

(٢) حشية أن يكون قد حث في يمينه وشفقه عليه .

فقدوه ، ولا يفرحون بالشئ ، ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة في إخراجهم .

قال الله تعالى ، للنبي ﷺ : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ^(١)) .

وهذا النبي ، ﷺ : « بينا جبريل ، عليه السلام ، عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا ملك قد نزل من السماء لم يتزل قط ، فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فيّ بأمر ، فجاء إلى النبي ﷺ ، بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : هذه مفاتيح خزائن الأرض ، تسير معك ذهباً وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنفصك ممالك عند الله شيئاً ، فلم يختار النبي ، ﷺ ، ذلك ، وقال : أجوع مرة وأشبع مرة » ^(٢) .

وعدّ ذلك من الله ، عز وجل ، بلوى واختباراً ، ولم يره من الله تعالى ، اختياراً ، ولو كان من الله تعالى ، اختياراً : لقبله ، ولكنه علم أن محبة الله تعالى : في الترك للدنيا والإعراض عن زينتها وبهجتها . وبذلك أدبه الله تعالى ، حين قال تعالى : (ولا تمدّن عينيك إلى ما

(١) سورة الأنعام . ٩٠

(٢) وجاء في الأحاديث . « خيرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً فاخترت . أن أكون عبداً رسولاً » وفي حديث آخر ، في دعاء النبي ﷺ « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً ، واحشني في زمرة المساكين »

متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه (١) .
ويروى عنه ، عليه السلام : « أنه لبس حلة لها علم فطرحها وقال :
كادت تلهيني أعلامها - أو قال ألهني أعلامها - خذوني وأتوني
بأنبجانية » .

وكذلك روى : « أنه صنع له خاتم ذهب ليختم به الكتب ، إلى
من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده ، وقال لأصحابه :
إليه نظرة وإليكم نظرة » .

وكذلك روى : « أنه ، عليه السلام ، غير شراك نعله ، فجعل مكانه
جديداً فقال : ردوا الشراك الأول » .

وكذلك كل قلب طاهر صاف . قد أشرف على الآخرة ، وعرف
قيام الله تعالى عليه : يفرغ من خفايا السكون إلى الدنيا ، والتحلى بشيء
منها .

ومثل هذا في الأخبار كثير . والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه
بالشيء . وهذا أصحاب محمد ، عليه السلام ، حين حثهم على الصدقة ، جاء
أبو بكر بماله كله ، لأنه كان أقوى القوم ، فقال له النبي ، صلى الله عليه
وسلم : ما خلقت لعيالك ؟

قال : الله ورسوله ، ولى عند الله مزيد (٢) .

(١) سورة طه ١٣١ .

(٢) الترمذى قال - حسن صحيح .

أفلا ترى أبا بكر ، رضى الله عنه ، إنما كان سكوناً إلى الله تعالى ،
لا إلى شيء ، ولم يكن لشيء عنده قدر ، وكان ما عند الله عنده أسر ؟ !
فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئاً ، وقال : خلفت الله
ورسوله .

ثم جاء عمر ، رضى الله عنه ، بنصف ماله ، فقال النبى ، ﷺ :
ما خلفت لعيالك ؟

قال : نصف مالى والله عندى مزيد .
فقد أعطى نصف ماله ، ويقول : والله عندى .
ثم عثمان ، رضى الله عنه ، يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج
إليه ، ويحفر بئر رومة^(١) .

أفلا ترى أن القوم ، إنما كانوا معدين الشيء لله تعالى ؟ !
ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو في
أيديهم ، يعدونه لله عز وجل .
وقد روى عن النبى ﷺ : أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء لا
نورث ، وما خلفناه صدقة » .

أفلا ترى أنهم في حياتهم : لم يضمنوا بالشيء عن الله عز وجل ؟ !
وكذلك لم يورثوه ، وخلفوه لله عز وجل ، كما كان في أيديهم لله
تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحداً .

(١) الترمذى والبخارى وغيرهما .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله تعالى وأنصف من نفسه .
وهذا أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ : أبوبكر ، رضى الله من حين
ملك الأمر ، وجاءته الدنيا راغمة من حلها ، لم يرفع بها رأساً ، ولم
يتصنع وكان عليه كساء يخلله^(١) . وكان يدعى : ذا الخلالين .
وهذا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين جاءته الدنيا
راغمة ، من حلها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفى ثوبه بضع عشرة
رقعة ، بعضها من آدم ، وقد فتحت عليه كنوز كسرى وقيصر .
وهذا عثمان ، رضى الله عنه ، كأنه واحد من عبيده ، فى اللباس
والزى ! ! ولقد روى عنه : أنه رأى خارجاً من بستان له ، وعلى عنقه
حزمة من حطب ، فقيل له فى ذلك ، فقال :
أردت أن أنظر نفسى : هل تأبى ؟
أفلا ترى أنه كان غير غافل عن نفسه ، وتعاهدها ورياضتها ؟
وهذا على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى الخلافة ، قد اشترى
إزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصاً بخمسة دراهم ، فكان فى كفه
طول ، فتقدم إلى خراز^(٢) ، فأخذ الشفرة ، فقطع الكم مع أطراف
أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمناً ويسرة !
وهذا الزبير ، رضى الله عنه ، يخلف حين مات ، من الدين مائتى

(١) يخط مابه من خال وشق

(٢) خياط .

ألف أو أكثر، كل ذلك من الجود والسخاء والبذل !
وهذا طلحة بن عبيد الله ، رضى الله عنه ، يعطى حتى أهله لمن
سأله !

فهذا يدل على أن القوم كانوا ، كما قال الله عز وجل ، حين
أمرهم ، فقال : (أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ^(١)) .
ولا يستحى عبد من عبيد الله من أهل زماننا هذا ، عندما ملك من
الشبهات التى علم الله تعالى ، كيف هى ، ومن أين هى ، وكيف قدرها
فى قلبه ، وإيثاره لها ، وسكونه إليها دون الله ، عز وجل ، وما لا يحصى
من عيبه ، فى قلبه فى ذلك واشتغاله بذلك ؟
حتى أن أحدهم ليزعم : أنه يملك كما ملك من مضى ، ويحتج بهم
فى اتباع هواه مع إقامته على خلاف سنة القوم .
بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى
النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغ ما بلغ بالقوم .
بل الاعتراف لله تعالى ، بالتقصير من العبد الغافل أقرب إلى
النجاة ، وسؤاله الله ، عز وجل أن يبلغه ما بلغ بالقوم .
وبالله التوفيق .

(١) سورة الحديد ٨ .

باب

الصدق في الزهد ، وكيف هو ؟ وما هو ؟

ولقد فضح الله تعالى الدنيا ، سماها بأسماء لم يسمها أحد .
فقال تبارك وتعالى : (اعلّموا أنّما الحياة الدُّنيا : لعبٌ ، وهوٌ ،
وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم . . . الآية)^(١) .
أفلا يستحي من يعقل عن الله تعالى ، أن يراه ساكناً إلى اللهو ،
واللعب ، في دار الغرور .

قلت : الدنيا في نفسها ، ماهي ؟
قال : اتفق البصراء من الحكماء على أن الدنيا هي النفس
وما هو يت .

والحجة في ذلك أن الله عز وجل ، قال : (زين للناس حب
الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ،
والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا)^(٢) .
فهذه الأمور التي ذكرها الله عز وجل ، هي من هوى النفس
ولذتها ، وبها تلهو عن الآخرة وذكرها .

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٠ .

فإذا ترك العبد ماتهواه النفس ترك الدنيا .
 ألا ترى أن العبد قد يكون فقيراً لاشيء له ، وهو يتمنى الدنيا ،
 ويهوى مجناها ، وينوى أن لو أمكنه منها ما يريد ، لتمتع بذلك ونال
 لذته ؟

فهو عند الله تعالى ، من الراغبين على قدر همته ^(١) ؛ إلا أنه أقل
 حساباً ممن نالها واستمتع بها .

فأول درجات الزهد : هو الزهد في اتباع هوى النفس ، فإذا هانت
 على المرء نفسه لم يبال على أى حال أمسى وأصبح ، إذا وافق محبة الله
 تعالى ، عند ذلك ، على مخالفة نفسه ، ومنعها من محبوبها من الشهوات
 واللذات والراحات ، ومقارنة الأحياء والأخذان والأصحاب من أهل
 الغفلة ، ومن كان منهم غوياً على ذلك الأمر الذى يريده العبد ، فإن آفة
 العبد : صحبة من يريد ما يريد .

ثم أخذ البلغة من الطعام والشراب واللباس والمنزل والنوم والكلام
 والنطق والاستماع ، وترك التفتى لشيء من الدنيا ، والحذر من تحليها .
 لأن النبي ﷺ قال : « الدنيا خضرة حلوة » .

فيتوهم العبد فناءها ؛ فيقصرفيها أمله ، مع توقع الموت ، والتشوف ^(٢)
 إلى الآخرة ، والشوق إلى الزول في دار بقائها ، والعمل في ذلك !

(١) عزيمته .

(٢) الطموح يبصره إليها (التطلع إليها) .

ولذلك يخلع الراحة من القلب بدوام الفكرة ، ومن البدن بدوام الخدمة .

فهذا أول درجات الزهد .

وقال سفيان الثوري ، رحمه الله تعالى ، ووکیع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ، وغيرهم : رحمهم الله تعالى : إن الزهد في الدنيا قصر الآمال .

وهذا يدل على ما قالت الحكماء ، لأنه من قصر أمله : لم ينعم ؛ وكانت الغفلة منه بعيدة .

وقالت طائفة من الناس : « الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة ، الذي قد جعلها نصب عينيه ، كأنه يرى عقابها وثوابها ، فهو عازف عن الدنيا » .

وهكذا يروى أن النبي ﷺ ، قال لحارثة : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ »

« قال : مؤمناً حقاً يا رسول الله »

فقال النبي ﷺ ، : « وما حقيقة إيمانك ؟ »

قال : « عزفت نفسي عن الدنيا ، فأظلمات لذلك نهاري ، وأسهرت ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتناعمون ، وإلى أهل النار يتعاوون .

فقال النبي ﷺ ، : « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم » (١) وقال بعض العلماء : الزهد خروج قيمة الأشياء من القلب .
والزهد في الدنيا : يدق جداً ويخفى ، ولكل عبد على قدر علمه بالله تعالى زهد .

فمن نفي الرغبة في الدنيا عن قلبه شيئاً بعد شيء ، يرى غاية الزهد ومن تواني عن نفسه ولم يخالفها عند هواها ، لم يعزف عن الدنيا ولم يشرف على الآخرة .
قال بعض العلماء : الزاهد في الدنيا حقاً لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن إذا أدبرت (٢) .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : قال بعض البدلاء رحمهم الله تعالى : لا يكون زاهداً مستكمل الزهد ، أو يستوى عنده الحجارة والذهب ، ولا تستوى الحجارة والذهب حتى يكون معه من الله تعالى آية ، فتحول الحجارة ذهباً ، فعندها تخرج قيمة الأشياء من قلبه .
وسمعه يقول : لم تستو الحجارة والذهب ، عند أحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، بعد رسول الله ، ﷺ ، إلا عند أبي بكر رضى الله عنه !

(١) البزاز من حديث أنس . والطبراني من حديث الحارث بن مالك . وسندهما ضعيف .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (لکی لاتأسوا على ما فاتکم ولا تفرحوا بما آتاکم) الحديد :

قلت : فعلى أى معنى زَهِد الزاهدون ؟ !

قال : على معان شتى .

فمنهم من زهد لفراغ القلب من الشغل ، وجعل همه كله فى طاعة الله تعالى ، وذكره وخدمته ، فكفاه الله عند ذلك .

فهكذا : روى عن النبي ﷺ أنه قال : « من جعل الهم^(١) همًّا واحداً كفاه الله سائر همومه » .

وقال عيسى عليه السلام : « بحق أقول لكم : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وفى المال داء كبير .

قالوا : ياروح الله ، ماذاؤه ؟

قال : لا يعطى حقّه .

قالوا : فإن أعطى حقه .

قال : يكون فيه فخر وخيلاء .

قالوا : فإن لم يكن فيه فخر ولا خيلاء .

قال : يشغله استصلاحه عن ذكر الله » .

ومنهم من زهد لحقّة الظهر ، وسرعة الممر على الصراط ، إذا حُبِس أصحاب الأثقال للسؤال .

فهكذا روى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « عُرِضَ عَلَى

(١) من جعل انجماه إلى الله فحسب ، أو إلى التقوى فحسب : كفاه الله جميع مشاكله الأخرى .

أصحابي ، ففقدتُ عبد الرحمن بن عوف - أو قال احتبس عليّ -
فقلتُ : ما بطأك عليّ ؟

قال : لم أزل أحاسب بعْدُ^(١) مكثرة مالي ، حتى جرى مني من
العرق مالو وردتْ عليه سبعون من الإبل عطاشاً ، قد أكلت حِمَضاً^(٢)
لصدرت^(٣) عنه رواء ! »

وروى عن النبي ﷺ من غير طريق أنه قال : « الأكثرون هم
الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن
شماله ، ومن بين يديه ومن خلفه ، بين عباد الله » .

قال ﷺ : « مامن غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أن الله تعالى ،
كان جعل رزقه في الدنيا قوتاً »^(٤) .

وروى أن أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « مايسرنى : أن لي مثلَ
أحد ذهباً ، أنفقه في سبيل الله تعالى ، تأتى على ثلاثة ، يكون منه عندي
شيء ، إلا دينار أرصده لدين » .

ومنها : من زهد رغبة في الحنة ، واشتياقاً إليها ، فسلى عن الدنيا

(١) العدل : الذي يعادل في الوزن والقدرة .

(٢) ست فيه ملحوة .

(٣) عادت ورجعت .

(٤) وفي ذلك أيضاً قال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » وقال صلى الله عليه
وسلم : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتي مسكيناً واحشني في زمرة المساكين » .

وعن لذاتها ، حتى طال به الشوق إلى ثواب الله تعالى ، الذى دعاه إليه ، ووصفه له عز وجل^(١) .

وروى فى الحديث : أن الله جل ذكره يقول : « وأما الزاهدون فى الدنيا : فإنى أبيعهم الجنة » .

وقال بعض العلماء : لا تحسن قراءة إلا بزهد !

وأعلى درجات الذين زهدوا فى الدنيا : هم الذين وافقوا الله تعالى فى محبته ، فكانوا عبيداً عقلاء عن الله عز وجل ، أكياساً محبين ، سمعوا الله جل ذكره ، ذم الدنيا ، ووضع من قدرها ، ولم يرضها داراً لأولياؤه ، استحيوا من الله عز وجل ، أن يراهم راكنين إلى شيء ذمه ولم يرضه ، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاء ، ولكن وافقوا الله فى محبته^(٢) كرماء ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فأهل الموافقة لله تعالى فى الأمور : هم أعقل العبيد ، وأرفعهم عند الله قدراً .

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى . (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الأنفال : ٦٧ .
ومن ذلك قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) النازعات .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) البينة : ٨ .

وهكذا روى عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : « يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم ! ! كيف غنموا سهر الحمقى وصيامهم ؟ ! ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين : أوزن عند الله من أمثال الجبال من أعمال المغترين » ^(١) .

وفى هذا بلاغ لمن عقل عن الله عز وجل .
وبالله التوفيق .

وروى عن بن عمر عبد العزيز ، رضى الله عنه : أنه نظر إلى شاب مصفر فقال له : « ما هذا الصفار يا غلام ؟ » .

قال : أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين !

قال : لتصدقنى !

قال : أسقام وأمراض .

قال : لتخبرنى !

قال : يا أمير المؤمنين ، عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وزهبيها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون ، وأهل النار فى النار يتعاوون ^(٢) .

(١) ومن ذلك قوله ﷺ : (الله الله فى أصحابى ، فوالله لو أفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ : (أطت السماء وحق لها أن تنط ، لم يبق فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تحارون إلى الله تعالى) .

فقال له عمر : أنى لك هذا يا غلام ؟
 قال : اتق الله يفرغ عليك العلم إفراغاً^(١) .
 إنه لما قصر بنا عن علم ما عملنا تركنا العمل بما علمنا ، ولو عملنا
 ببعض ما عملناه لورثنا علماً لا تقوم له أبداننا^(٢) .
 وروى عن أبي بكر الصديق ، رضى الله عنه : أنه استسقى ، فأنى
 بإناء فلما قرب به إلى فيه وذاقه نحاه ، ثم بكى ، فقبل له فى ذلك .
 فقال : « رأيت رسول الله ، ﷺ ، ذات يوم وهو يدفع بيديه كأن
 شيئاً يقع ، لا أرى شيئاً ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تدفع بيديك ولا
 أرى شيئاً ! فقال : نعم ، تلك الدنيا تمثلت لى فى زينتها ، فقلت :
 إليك عني^(٣) . ! فقالت إن تنج منى فلن ينجو منى من بعدك ! »
 قال أبو بكر رضى الله عنه : « فأخاف أن تكون أدركنى » .
 قال : « وكان فى الإناء الذى شرب أبو بكر ، رضى الله عنه ، منه :
 ماء وعسل ، فبكى إشفاقاً من ذلك » .
 ويروى فى بعض الحديث : أن أصحاب محمد ، ﷺ : لم يأكلوا

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله
 يهد قلبه) والآيات كثيرة جداً فى هذا الباب
 (٢) ومن ذلك قوله ﷺ : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .
 (٣) عملاً بقوله تعالى : (ولا تمدن عييك إلى مامتنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا
 لفتنهم فيه ، وورق ربك خير وأبقى » طه - ١٣١ .

تَلَذَّذُوا ، وَلَمْ يَلْبَسُوا تَنَعَمًا^(١)

وفي رواية : « أن أصحاب محمد ، عليه السلام ، الذين اتسعوا في الدنيا من بعده - حين فتحت عليهم من حلها - أنهم بكوا من ذلك وأشفقوا ، وقالوا : نخاف أن تكون عَجَلَت لنا حسانتنا .
فليتنق الله عبد ، ولينصف من نفسه ، وليلزم منهاج من مضى ، وليعترف بالتقصير ، ويسأل الله الإقالة !

باب

الصدق في التوكل على الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)^(٢) .
وقال تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٣) .
وقال تعالى : (إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)^(٤) .
وروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « يدخل الجنة من أمتي سبعون

(١) لأن ذلك شأن الكافرين ، واسمع قوله تعالى : « والذين كفروا ينتمون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » محمد - ١٢ .
(٢) آل عمران ١٢٢ .
(٣) المائدة ٢٣ .
(٤) آل عمران ١٥٩ .

ألفاً بغير حساب ، وهم : لا يتطيرون ، ولا يكتون ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون» ^(١) .

وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خياصاً ^(٢) وتروح بطناءً » ^(٣) .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « العز والغنا يجولان في طلب التوكل ، فإذا أصاباه أوطنا » .

فالتوكل - في نفسه ووجوده في القلب - : هو التصديق لله عز وجل ، والاعتماد عليه ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه في كل ماضن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق ، وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة ، فالله مالكة والقائم به ، لا يوصله إليه غيره ، ولا يمنعه غيره مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى ، والثقة به والعلم الخالص ، واليقين الثابت : أن يد الله المبسوطة إليه ، الموفية له من كل ما طلب ، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره ، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه !

(١) متفق عليه .

(٢) حياً .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن .

وهكذا روى عن الفضيل ، أنه قال : المتوكل على الله ، الوائق به : لا يتهمه ، ولا يخاف خذلانه .

وكذلك المتوكل على الله : إذا ملكه الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا وفضل عنده ، لم يدخره لغد إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقوف لحقوق الله ، وهو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة سارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان في الذي يملك وإخوانه سواء . وإنما يجب ذلك عليه لأهل الستر خاصة ، والقراة ، وأهل التقوى ، ثم لعام المسلمين ، إذا رآهم على حال ضرورة غير نقص حالهم .

وروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وإذا أصابتك مصيبة كنت بشواها أفرح منك بها لو بقيت عنك » (١) .

وقال بلال رضي الله عنه : « جئت إلى النبي ، ﷺ ومعى تمر فقال : ما هذا ؟

قلت : شيء ادخرته لإفطارك . فقال : أنفق بلال ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، أما خشيت

(١) الترمذى وابن ماجه عن أبي ذر

أن يكون له بخار في جهنم ! ؟» ^(١) .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : « إني لست كأسماء - يعنى أختها - إن أسماء لا ترفع شيئاً لغد ، وأنا أجمع الشيء إلى الشيء » .

وروى عن عائشة أيضاً رضى الله عنها : « أنها فرقت الدراهم ، وهى ترفع درعها ، فقالت لها خادمتها : ألا أبقيت درهماً للحم ؟ قالت : أفلا ذكرتني ! » .

وروت عائشة رضى الله عنها ، عن النبي ﷺ : أنه بات في مرضه الذى قبض فيه شبيهاً بالقلق ، فلما أصبح قال : « ما فعلت الذهبية ؟ - وكانت قيمتها ستة وخمسين درهماً - فقال : أخرجتها ، فما ظن محمد بربه لو لقيه وهذه عنده ؟ ! » .

وروى عن مسروق رحمة الله عليه ، أنه قال : « أوثق ما أكون بالله إذا قالت الخادم : ليس عندنا شيء ! »

قلت : فالتوكل على الله تعالى بالأسباب أو بقطع الأسباب ؟ قال : بقطع أكثر الأسباب ، وتتخطى إلى المسبب ، فتسكن إليه ^(٢) .

(١) التراز وأبو يعلى والطبراني بنحوه ، وأسانيد كلها ضعيفة . وقال الهيثمى : إسناده حسن .

(٢) ونى ذلك بقول الله ، تعالى : (أليس الله بكاف عبده) ؟ .

قلت : وهل يتداوى المتوكل ، أو يتعالج ؟
 قال : الأمر في هذا على معان ثلاثة : وقد خصّ تبارك وتعالى بترك
 الدواء والأسباب طائفة ، لقول النبي ﷺ : « يدخل الجنة من أمتي
 سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لا يكتنون ، ولا يسترقون ، وعلى
 ربهم يتوكلون ! » ^(١)

وقال النبي ﷺ . « ماتوكل من اكتوى واسترقى ! » ^(٢)
 وقال ﷺ : « من ردّته الطيرة فقد قارن الشرك » ^(٣)
 وقد أمر النبي ﷺ . بالدواء والرق وأمر بالرقية . وقطع لأبي بن
 كعب رضي الله عنه ، عرقاً .

فهذا على معاني قول المغيرة بن شعبه . لم يتوكل من اكتوى واسترقى
 من هؤلاء السبعين ألفاً ، الذين خصّهم النبي ﷺ ، كذلك فسره بعض العلماء .

وما كان من سوى ذلك : فباح لهم من سائر الناس . وهو غير
 ناقص من توكلهم ، إذا كان معهم العلم والمعرفة ، وكان نظرهم إلى ربّ
 الداء والدواء ، إن شاء أن ينفع بالدواء ، وإن شاء أن يضرّ .

وقد يطلب شفاءه بالدواء فيكون فيه سقمه ، وقد مات غير إنسان
 من الدواء وقطع العرق ، ولما طلب الشفاء ، وقد يرجو منفعة في الشيء

(١) متفق عليه .

(٢) الترمذي نحوه وحسنه ، والطبراني واللفظ له .

(٣) أحمد والطبراني سند حسن عن ابن عمرو

فتكون فيه مضرته . وقد يخاف الضرر من شيء ، فتكون فيه المنفعة .
فالصادق واثق متوكل على ربه ، فإنما توكل عليه ، حين علم أنه
حسبه من جميع خلقه . فلم يجد فقد شيء يمنعه الله ، لأن الله حسبه
وهو بالغ أمره .

قلت : فن قال : أتوكل على الله لأكفي ؟

قال : لا يخلو هذا القول من معنيين :

معنى : أن يكفيه مؤنة الجزع والطلع ، لأنه يتحول عن شيء قد
قدره الله عليه أن ينزل به ، بالتوكل .
فهذا قولنا وقول من أثبت القدر .

ومن قال : إنه يكفيه ما استكفاه لا محالة مثل قوله : لا يأكلني السبع
لتوكل ، والذي يأتي بطلب يأتي بلا طلب ، فالتوكل يدفع عني إذا
استكفيه كل مؤنة كنت أخافها ، فليس يعجبنا هذا القول ؛ لأن المتوكل
قد يُكنى وقد لا يكنى وتوكله غير ناقص .

قلت : مثل ماذا ؟ اشرح لي من ذلك شيئاً .

قال : نعم ، حيث دجّت يحيى بن زكرياء امرأة جبارة في طشت ،
ألم يكن متوكلاً ؟ ! .

وحين نُشِرَ زكرياء ، صلوات الله عليه ، بالمنشار ألم يكن
متوكلاً ؟ ! .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، قتلوا ونيل منهم المكروه ، وهم

أقوى الخلق يقيناً وأصدقه .

وهذا محمد ﷺ ، حين هرب إلى الغار هو وأبو بكر رضى الله عنه ، فاخْتَبَئَا فِيهِ ، وحين كسر المشركون رِباعِيته ﷺ . وأدموا وجهه ألم يكن متوكلاً ؟

أفلا ترى أَنَّ التوكّل إنما هو الاعتماد على الله عزّ وجلّ ، والسكون إليه ثمّ التسليم بعد ذلك لأمره . يفعل ما يشاء ؟ !

وهكذا روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « من يتوكّل على الله فهو حسبه . إن الله بالغُ أمره » قال : قاض أمره : « قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

قال : أجلاً ومنتهى ينتهى إليه العبد . وليس المتوكّل بالذى يقول : « تقضى حاجتى » .

فهذا تفسير ابن مسعود رضى الله عنه : يخبر أن المتوكّل على الله هو الذى يلجأ إلى الله تعالى . ويعلم أنه لا يتم شيء إلا من قبل الله تعالى . الذى يعطى ويمنع بقدرته . .

فالمتوكّل على الله تعالى : لا يستوحش و حالة المنع . ولا يستجلب بالمتوكّل الإيعطاء ؛ لأن الحرص لا يعطى ولا يمنع . والله جل وعز مانع ومعطى .

وقد يُعطى العبدُ الشيء بلا توكّل . ويمنع وهو متوكّل .
فقد يُرى الجوسى . والكافر . والحاحد . والفاجر . المضيع لأمر الله

عز وجل ، الذى لاصدق له ولايقين ، فقد يرى هازلون يكفرون ،
وتقضى لهم الحوائج ، والمتوكل الصادق الموقن لا تقضى له حاجة ، حتى
يموت ضراء وهزلاء !

وإنما التوكل : ترك السكون إلى أسباب الدنيا ، ونفى الطمع من
المخلوقين ، والإيأس منهم ، حين علم المتوكل : أنه صائر إلى المعلوم ،
فرضى بالله تعالى ، وعلم أنه لا يدرك بالتوكل تعجيل ما أخر الله تعالى ،
ولا تأخير ما عجل ، ولكنه اكتسب إسقاط الهلع والجزع ، واستراح من
عذاب الحرص ، وراض نفسه بأدب العلم والمعرفة وقال : ما قَدَّر
سيكون ، وما يكون فهو آت .

وكذلك قال بعض الحكماء : انتقم من حرصك بالقنوع ، كما تنتقم
من عدوك بالقصاص .

وقال بعض الصحابة ، رضوان الله عليهم : « دخلت على النبي ،
ﷺ ، وفى البيت تمر غابرة فقال : خذها ، لو لم تأتها لأنتك ! »
حدثنا محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا أحمد بن حنبل ، قال :
حدثنا مروان بن معاوية قال : حدثنا المعلى عن أنس بن مالك ، رضى
الله عنه ، قال : « أهدي إلى النبي ﷺ طوائر فاطعم خادماً طائراً ، فلما
كان من الغد أتته به فقال : ألم أنك أن تحباً رزقاً لغد ؟ »
فهذا مالايسع الناس جهله من التوكل .
وغاية التوكل : أجل من ذلك .

باب

الصدق في الخوف من الله عز وجل

قال الله تعالى : (وَأَيُّى فَاَرْهَبُونَ) ^(١) (وَأَيُّى فَاَتَقُونَ) ^(٢) .

وقال تعالى : (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ) .

وقال تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) ^(٣)

وقال تعالى : (كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

وقال تعالى : (وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ

تُفِيضُونَ فِيهِ) . ^(٤)

وقال تعالى : (يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)

وقال النبي ﷺ : «خف الله كأنك تراه» .

قال ذلك لابن عباس رضى الله عنه .

فالذى يهيج الخوف حتى يسكن القلب : هو دوام المراقبة لله عز

وجل ، فى السروالعلانية ؛ وذلك لعلمك بأن الله تعالى ، يراك ولا يخفى

عليه شىء من حركاتك ظاهراً وباطناً .

(١) البقرة : ٤٠ و ٤١ .

(٢) النحل : ٥٠ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) يونس : ٦١ .

فعند ذلك يحل مقامه عليك في كل حركة ظاهرة وباطنة ، وتحذر أن يرى بقلبك شيئاً مما لا يحبه ولا يرضاه بالوقوف منك على همك ، إذا كان يعلم ما في نفسك .

فمن ألزم قلبه في الحركات كلها أن الله تعالى ، يراه رجوع عن كل ما يكره بعون الله ، فطهر قلبه واستنار ، وسكنه الخوف ، ودام حذره من الله ، فكان مشفقاً في جميع الأحوال ، وعظّم أمر الله تعالى في قلبه ^(١) ، فلم تأخذه في الله لومة لائم ، وقلّ وصغر من دون الله في عينه من ضييع أمر الله .

وذكر الخوف يطول ، وهذه الأصول التي من استعملها تؤديه إلى الحقائق .

فهذا ظاهر الخوف وما بقي من صفته أكثر .

(١) ومن ذلك : قوله تعالى ، حكاية عن خوف المؤمنين : (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) الطور : ٢٦ .

باب الصدق في الحياء من الله عز وجل

يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « الحياء : من الإيمان » ^(١)
 وروى عنه ﷺ أنه قال : « الحياء خير كله » ^(٢) .
 وقال ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيا من الله
 حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما عوى ، وليذكر
 المقابر والبلبي ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا » ^(٣)
 وقال النبي ﷺ : « استح من الله كما تستحي من رجل صالح من
 قومك » ^(٤) .

وقال رجل يارسول الله : مانبدى من عوراتنا وما نندر ؟
 قال : « استر عورتك إلا من أهلك وماملكت يمينك »
 قال : فأحدنا يكون خالياً .

(١) مسلم والترمذى .

(٢) مسلم وأبو داود .

(٣) أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .

(٤) هذا مثل تقرئى ، وإلا فافقه أكبر ، فالاستحياء منه يجب أن يكون على قدره ، ومع
 هذا فما أحد قدر الله حق قدره ، لأنه لا يحيط بقدره حقيقة إلا هو ، والحديث رواه ابن عدى
 بنحوه .

قال : « فالله أحق أن يستحي منه » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، إذا ذهب إلى الخلاء يغطى رأسه ويقول :

« إني لأستحي من ربى »

وهذه أخبار تدل كلها على قرب الله عز وجل من القوم ، لأن المستحي من الله تعالى ، يرى اطلاع الله تعالى عليه . ومشاهدته له فى جميع الأحوال .

قلت : فما الذى يهيج الحياء ؟

قال : ثلاث خصال :

الأولى : تفكيرك فى دوام إحسان الله تعالى ، إليك مع تضييع الشكر منك ، ومع دوام إساءتك وتفريطك .
والثانية : أن تعلم أنك بعين الله عز وجل فى متقلبك ومثواك .
والثالثة : ذكر لوقوفك بين يدى الله عز وجل ، ومساءلته إياك عن الصغير والكبير .

قلت : فما الذى يُشيد الحياء ويقويه ؟

قال : « الخوف لله عز وجل ، عند الهوى الخاطر الواقع فى القلب !
فيفزع القلب ، ويستوحش عندما يعلم أن الله تعالى ، يرى ما فيه فيثبت الحياء من الله^(١) ، فإذا دام على ذلك زاد الحياء وقوى »

(١) ومن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ،

فإذا هم مبصرون) الأعراف - ٢٠١

قلت : فالذى يولد الحياء ماهو؟

قال : الفزع من أن يكون الله تعالى ، عنه معرضاً وله ماقتاً ، ولفعله غير راض .

قلت : فما الغالب على قلب المستحي من ربه ؟

قال : إجلال رؤية ما يراه ، فحيثئذ يهاب الله عز وجل ، ويستحي منه .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : سمعت بعض المريدين سأل بعض أهل المعرفة .

قال : ما علامة هية الله في قلب العارف بالله ؟

قال : إذا استوى عنده الأفعى والذئب .

قلت : فبم يضعف الحياء ؟

قال : بترك المحاسبة وترك الورع .

قلت : فكيف أحوال المستحي في نفسه ؟

قال : طول الخشوع ودوام الإخبات^(١) ، وتنكس الرأس ، وانحصار الطرف ، وقلة النظر إلى السماء ، وكلال اللسان عن كثير من الكلام ، والفزع من التكشف في الخلاء ، وترك العبث والضحك ، والحياء عند إتيان ما أباحه الله ، فكيف بذكر عارض ، مما نهى الله تعالى عنه ؟

(١) خضوع القلب .

والناس يتفاوتون في الحياء على قدر قرب الله تعالى منهم وقربهم منه ،

باب

الصدق في معرفة نعم الله تعالى والشكر له

قال الله عز وجل : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) ^(١)
وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) ^(٢) .
وقال : (اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) ^(٣) .
فاذا أفاق العبد من الغفلة ، فكر ونظر إلى نعم الله تعالى عليه ،
وتكاملها قديماً وحديثاً .

فأما نعمه القديمة ؛ فذكره لك قبل أن تك شيئاً ، وما خصك به
من توحيده ، والإيمان به ، والمعرفة له ، فأجرى باسمك القلم في اللوح
المحفوظ مسلماً ، ثم أهلك القرون السالفة ، وجعلك في شرذمة من
المؤمنين ناجية ، حتى أخرجك في خير أمة ، وأكرم دين ، ومن أمة

(١) سورة الإسراء . ٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٣) سورة النقرة في الآيتين : ٤٠ ، ٤٧

حبيبه محمد ، ﷺ ، ثم هداك للسنة واستعملك بالشريعة وابعادك من
الزيف والأهواء ، ثم رباك وكلاك وغذاك حتى وجبت عليك الأحكام .
فأغفلت نعمته ، وفرطت في حفظ وصيته ، وركبت هواك من
عمرك حيناً ، وفي كل ذاك لا يكافئك بإساءتك ، بل يسترک ، ويحلم
عنك ، وينظرك .

ثم عطف عليك يعد ذلك ، بعد ما كنت شروداً فأيقظك من
الغفلة ، وعرفك ما فاتك من حظك من طاعتك ، فوهب لك الإنابة
إليه ، وأجلسك على طيب مرضاته .
فوجب عليك الآن شكر بعد شكر ! فأى نعيم تحصي . وعلى أيها
تشكر ؟

ولابد من معرفة الشكر ، ومباشرته .

والشكر على ثلاثة وجوه :

شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب : « فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره »
وأما شكر اللسان : « فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه ، وذكر
إحسانه »

وأما شكر البدن : « فلا تستعمل جارحة - أوصحها الله تعالى

وأحسن خلقها - في معصية ، بل تطيع الله ، تعالى ، بها »
وكذلك كل ما خولك وملكك من الدنيا جعلته عوناً لك على

طاعته ، ولم تحوِّله في باطل ، ولم تنفقه في سرف ، ثم تبذل لله عز وجل
ذكره وعزَّ جدُّه الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .

وهكذا يروى عن النبي ﷺ : « أنه قام حتى تورمت قدماه ؟ فقيل
له : يا رسول الله ما هذا التعب ؟ أليس قد غفر الله لك ؟ ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وقال الله عز وجل . (اعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْرًا) ^(١)

وقال تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ^(٢)

فإذا بلغ العبد من الشكر لله عز وجل غاية ، انقطع فنظر ، فإذا
شكره نعمة من الله تعالى ، تحتاج إلى أن يشكر الله تعالى عليها ، إذ جعله
من الشاكرين ، فعمل عند ذلك في شكر الشكر ! ثم كاد يتحير ،
تواترت عليه من الله تعالى الألفاظ بالبر والكرامات .

وبلغنا أنه فيما ناجى به موسى ، عليه السلام ، ربه ، عز وجل ،
قال : « يارب أمرتني بالشكر على نعمتك ، وإنما شكرى إياك نعمة من
نعمك » !

فأوحى الله إليه : « لقد علمت العلم ، إذ علمت أن ذاك منى فقد
شكرتني »

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ذكر النعمة شكر ما ،
فدلت النعم على محبة المنعم !

(٢) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

(١) سورة ساء من الآية ١٣

باب الصدق في المحبة

وقد أجمع الحكماء أنها تستخرج من ذكر النعم .
وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال :
« أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل
بيتي لحبي » ^(١) .

وقال الله ، عز وجل : (والذين آمنوا أشد حبا لله) ^(٢)
وبلغني أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى ، عليه السلام :
« يا عيسى بحق أقول لك : إني أحبُّ إلى عبدی المؤمن من نفسه التي بين
جنيه » .

وبلغنا عن الحسن البصري ، رضي الله عنه : أن ناساً قالوا ، على
عهد رسول الله ﷺ : « يا رسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً » فجعل
الله تعالى لمحبه علماً وأنزل ، عز وجل :
(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ^(٣)

(١) الترمذي والحاكم عن ابن عباس بسند صحيح .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : ٣١ . وذكر هذا القول عن الحسن بن كثير في تفسيره .

فمن صدق المحبة : اتباع الرسول ﷺ في هديه ، وزهده وأخلاقه ،
والتأسي به في الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها ، فإن الله
عز وجل جعل محمداً ﷺ علماً ودليلاً وحجة على أمته .
ومن صدق المحبة لله تعالى ، يثار محبة الله عز وجل ، في جميع
الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر
نفسك .

وبلغنا أن موسى عليه السلام ، قال : « يارب أوصني »
قال الله عز وجل : « أوصيك بي » .
قال : « يارب كيف توصيني بك ؟ »
قال : « لا يعرض لك أمران ؟ أحدهما لي والآخر لنفسك ، إلا آثرت
محبتي على هواك » .
فالمحب لله : قد جعل ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه فرضاً على نفسه ،
فهو يتفرغ من الغفلة ويستغفر منها ، وكذلك جوارحه : إنما هي وقف
لخدمة من أحبه .

فهو غير ساه ولا لاه وإنما هم أن يُرضى من أحبه ، فقد بذل المجهود
في موافقته في أداء فرائضه ، واجتناب مناهيه ، فهو متزين له بكل
طاقته ، حذراً من أن يأتي عليه أمر يسقطه من عين من أحبه .
وهكذا روى النبي ﷺ من غير طريق ، أنه قال : « يقول الله عز
وجل : ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال يتقرب

إلى النوافل حتى أحبه ، فإذا أحبيته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً^(١)
 دعاني فأجبتة ، ونصح لي فنصحت له^(٢)
 فعلمة الحب : الموافقة للمحبيب ، والتجاري^(٣) مع طرقاته في
 كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على
 مذهبه^(٤)

قلت : فالحبة على قدر النعم ؟
 قال : المحبة بدوها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم على قدر
 ما يستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى - عند النعم ، وعند
 فقدها ، وعلى كل حال - حباً صحيحاً منعه أو أعطاه أو ابتلاه أو
 عافاه ؛ فالحبة لازمة لقلبه ، على حالة واحدة ، في العقد^(٥) ، ثم هي
 إلى الزيادة أقرب .

ولو كانت على قدر النعم ، لنقصت المحبة إذا نقصت النعم ، في
 وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذي وله^(٥) عقله
 بربه ، واشتغل برضاه فكان في شكره لله وذكره حيران ، كأنه ليس نعمة
 على أحد إلا وهي عليه ، وهو مشغول بحبه لله عز وجل ، عن كل

(١) البخاري بنحوه وفيه هنا زيادات

(٢) التجاري : المسيرة : أي المتابعة

(٣) مذهبه : قصده وطريقته

(٤) العقد : العزم والنية .

(٥) وله عقله . أي ذهب ، والمعنى هنا . اشتد حبه حتى كأنه ذهب عقله

الخلق ، وقد أسقطت المحبة لله تعالى ، عن قلبه الكبر والغل والحسد
والبغي ، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة ، فكيف يذكر
مالا يعنيه ؟ !

قال بعض الحكماء : من أعطى من المحبة شيئا فلم يعط مثله من
الخشية فهو مخدوع .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ، أنه قال : الحب
أفضل من الخوف .

وحدثنا إسماعيل بن محمد قال : حدثني زهير البصري قال : لقيت
شعوانة ، فقالت لي : ما أحسن طريقتك ! إلا أنك تنكر المحبة !
قلت : ما أنكرها ؟

فقالت لي : أتحب ربك ؟

فقلت : نعم

قالت : فكيف تخاف ألا يحبك وأنت تحبه ؟ !

قلت : أنا أحبه لما أولاني ومانداني ^(١) من معرفته ونعمه ، ولي
ذنوب أخاف أن لا يجنني لما كسبت ^(٢) !
فغشي عليها ، ثم أفاقت فقالت : زه !

(١) نداني الذي الجود ، والمعنى هنا : ما أسع على من معرفته ونعمه .

(٢) كسب الإثم . أى ارتكبه وتحمله .

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى : ما أحسن ما قال هذا الرجل ! هذا كلام صحيح ! !
 قال أبو سعيد قدس الله روحه : قال رجل من رفقاء البدلاء : من يحب الله كثير الشأن فيمن يحبه الله .
 وبالله التوفيق .
 وفي هذا بلاغ لمن أعانه الله تعالى وسدده ، وما بقي من صفات المحبين أكثر !

باب الصدق في الرضا عن الله عز وجل

قال الله عز وجل : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ^(١) .
 قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى : ما شهد الله تعالى لهم بالإيمان ، حين لم يرضوا بحكم نبيه ، فكيف إذا لم يرضوا بحكمه عز وجل ؟ !

قلت : فما علامة الرضا في القلب . ومما وجوده ؟ !
 قال : سرور القلب بمر القضاء .

(١) سورة النساء ٦٥ . شجر وقع من نزاع حراً : ضيقاً

وقال بعضهم : الرضا تلقى المصائب بالرجاء والبسر .
وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أنه قال : كنت خادماً
للبقي عليه السلام فما قال لى لشيء قط لما فعلت أو ألا فعلت ! إنما كان يقول :
« كذا قضى . وكذا قدر » ^(١) .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما أبالي على
ما أصبحت وما أمسيت على ما أحب أو على ما أكره . لأنى لا أدرى
أيهما ^(٢) خير لى »

وقال عمر أيضاً : « لو أن الصبر والشكر بعيران لى ما أبالي على أيهما
ركبت »

فهذا يدل على الرضا من قول عمر رضى الله عنه ، لأن الصبر
لا يكون إلا على ما يكره ، والشكر لا يكون إلا على ما يجب . فقال :
لا أبالي أيهما وقع لى ، وذلك لاستواء الحالين عنده .

ويروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . أنه قال : « حبذا
المكروهات وإيم الله ما هو إلا الغنى والفقر . وإن حق كل واحد منهما
لواجب إن كان الغنى فإن فيه العطف . وإن كان الفقر فإن فيه الصبر »

(١) قصى وقدر : حكم بما سبق فى علمه واقتضاه

(٢) وفى ذلك يقول النبى ﷺ . (عجباً للمؤمن ، حال المؤمن كله حير له : إن أصابته
نعماء شكر ، وإن أصابته صراء صبر) . أو كما قال .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى فى الأمور من اختيار .

وقال بعضهم : ومالى من النعم سوى مواقع القدر فى ، كائناً ما كان وكان قد سقى السم ، فقبل له : تعالج ، فقال : لو علمت أن شفاى فى أن أمس أنى أو أذى ما فعلت .

وقال النبى ﷺ لابن مسعود ، رضى الله عنه : « يابن أم عبد لا يكثر همك ^(١) ، ما يقدّر يكن ، وماترزق تأكله » .

وقال النبى ﷺ فى قصة طويلة لابن عباس رضى الله عنهما : « فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، وإلا فى الصبر على ما تكره : خير كبير » ^(٢) .

أفلا ترى أنه ﷺ دعاه إلى أعلى الحالين .

وقال بعض الحكماء : إذا استتم فى العبد الزهد والتوكل والمحبة واليقين والحياء صح له الرضا .

وهو عندنا كما قال وإلا فهو مع الناس ، أوقات وخطرات ^(٣) على قدر إيمانهم ، ثم يعودون إلى الصبر .

(١) همك : كثرة انشغال بالك . والحديث رواه البيهقى فى الشعب وفى القدر يستند

ضعيف .

(٢) الترمذى من حديث ابن عباس ورواه أيضاً الطبرانى .

(٣) خطرات : ما يخطر فى القلب من تدبير

وقال بعضهم : الرضا قليل ، ومعول^(١) المؤمن الصبر .
فقلت : اشرح لي قول الحكيم : الراضى يتلقى المصائب بالبشر
والسرور .

قال : إن العبد لما صدق في محبته ، وقعت بينه وبين الله تعالى ،
المفاوضة والتسليم ، فزالت عن قلبه التهم ، وسكن إلى حسن اختيار من
أحبه ، ونزل في حسن تدبيره وذائق طعم الوجود به ، فامتلاً قلبه فرحاً
ونعياً وسروراً ، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، فصار اسم
البلوى عليه معلقاً ، فيُستخرج منه إذا نزل به أمور كبيرة ، فتارة يتنعم
بعلمه به إذا علم أنه يراه في البلوى ، وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ، ولم
يغفل عنه ، على عظم قدره أن يولى من أمره ما فيه الصلاح ، فيراه تارة
يشكو إليه شكوى المحب إلى حبيبه ، وتارة يثنى إليه ؛ وتارة يطمع أن يراه
راضياً عنه^(٢) .

فهكذا قال جل ذكره : (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) ^(٣) .

فالرضا تعجله العقلاء عن الله عز وجل ، في الدنيا قبل الآخرة ،
فُخرجوا من الرضا إلى الرضا .

(١) معول المؤمن . سلاح المؤمن .

(٢) ومن ذلك قوله ﷺ بعد أن شكى إليه ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس : (اللهم
إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي) .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ ، ٢٨

وهكذا قال عز وجل : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ) الْآيَةُ .

فقد ذكرنا بعض صفات الراضين من ظاهر ما أمكن أن يذكر مثله في كتاب ، وما بقي من صفاتهم أكثر .
وبالله التوفيق .

باب

الصدق في الشوق إلى الله عز وجل

روى عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك
لذة العيش بعد الموت ، والنظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقاءك » .
وروى عن أبي الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه كان يقول : « أحب
الموت اشتياقاً إلى ربى » .

وروى عن حذيفة رضى الله عنه ، أنه قال عند الموت : « حبيب
جاء على فاقة ^(١) ! لا أفلح من ندم » .

وروى عن شهر بن حوشب رضى الله عنه ، أنه قال : « أخذت
معاذ ، رضى الله عنه قرحة في حلقه ، فقال اخنق ^(٢) خنقك ، فوعزتلك
إني أحبك » .

(١) الفاقة . شدة الحاجة إلى الشيء . (٢) اخنق خنقك أى اقض الروح

وكان على بن سهل المدائني رحمه الله ، يقوم إذا هدأت^(١) العيون ، فينادي بصوت له محزون : « يا من اشتغلت قلوبُ خلقه عنه بما يعقبهم عنه لقائه ندماً ، ويا من سهت قلوب عبادِه عن الاشتياق إليه ، إذ كانت أياديهِ^(٢) إليهم قبل معرفتهم به » ثم يبكي حتى تبكي لبكائه جيرته ، ثم ينادي : « ليت شعري سيدي إلى متى تحبسني^(٣) ! ابعثنى سيدي إلى حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برح بي ، وطال على الانتظار » ثم يخر مغشياً عليه ، فلا يزال كذلك حتى يحرك للصلاة الصبح .

وكان الحارث بن عمير رحمه الله ، يقول إذا أصبح : أصبحت ونفسي وقلبي مصر على حبك سيدي ، ومشتاق إلى لقائك ! فعجل بذلك قبل أن يأتيني سواد الليل ، فإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم يزل على مثل هذا الحال ستين سنة .

فالمشتاق إلى الله تعالى ، هو المتبرم^(٤) بالدنيا والبقاء فيها ، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل .

ومن علامته التوحش^(٥) من الخلق ، ولزوم العزلة والانفراد

(١) هدأت العيون : نامت .

(٢) أياديهِ : نعمه . —

(٣) تحبسني : تقضى بيقاني .

(٤) المتبرم الضجر .

(٥) التوحش : التفور .

بالوحدة ، ومن شأنه القلق والحزن والحنين والنحيب ^(١) والكمد ^(٢)
والغصة ^(٣) المنكسرة في الصدر بشدة الشغف ^(٤) والكلف ^(٥)
والهذيان ^(٦) بذكر المحبوب ، والارتياح إليه ، والفكرة الصافية بهيجان
الهمة ^(٧) ، وجولان ^(٨) الروح في الغيوب ، لطلب اللقاء والبهت ^(٩) ،
والدهش والخيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من
الدنيا والآخرة ، إلا رؤية من هو إليه مشتاق ، نعم ، ثم يعارضه الآن
الخوف الذي هو الخوف أن لا يصل إلى محبوبه ، ويخاف أن يقطع به
دونه ، ويحال بينه وبينه ، ويحجب ^(١٠) عنه ، ثم يخاف أن تحدث
حادثة ، إذ كان في دار البلوى ، فقد طالت عليه الأيام والليالي إلى أن
يخرج من الدنيا سالماً على الأمر الذي يرضى مولاه .

-
- (١) النحيب البكاء .
 - (٢) الكمد : الحزن المكتوم .
 - (٣) مايقف في الخلق من طعام وشراب .
 - (٤) الشغف : الهوى الشديد .
 - (٥) الحب والولع .
 - (٦) الهذيان : الذي يتخلط ويتكلم بما لا ينبغي .
 - (٧) هيجان الهمة : هدة العزيمة .
 - (٨) جولان الروح : طوفان الروح .
 - (٩) البهت : الدهش والتحير .
 - (١٠) يحجب : يمنع .

فهذا بعض ما يمكن ذكره من صفات المشتاقين . وما يق من
نعتهم (١) أكثر .
وبالله التوفيق .

باب

الصدق في الأنس بالله ، تعالى ، وبذكره وقربه

قال بعض الحكماء : الأنس بالله . جل ثناؤه : أرق وأعذب من
الشوق . لأن المشتاق : كان بينه وبين الله تعالى . مسافة خفيفة لعله
شوقه . والمستأنس أقرب من الله . عز وجل (٢) .
وهكذا روى عن النبي ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام . في
صورة رجل . فسأله عن الإسلام والإيمان . ثم سأله عن الإحسان .
فقال له النبي ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه
يراك . فقال له : صدقت ! » .
وروى عن النبي ﷺ أنه قال لابن عمر . رضى الله عنه : « اعبد
الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٣)

(١) نعتهم : وصفهم .

(٢) وقد بين النبي ﷺ مظنة القرب ، فقال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد
فأكثرُوا من الدعاء فمن أن يستجاب لكم » .

(٣) رواه الشيخان .

وإنما دله على قرب الله عز وجل ، وقيامه عليه ، ومن قرب الله تعالى ، تُسْتَخْرِج حقائق الأمور في كل مقام .
فمن كان مقامه الخوف ، أدركه من قرب الله تعالى - حين علم أنه يراه - الحذر ، والفرق^(١) ، والخشية^(٢) .

ومن كان مقامه المحبة ، أدركه من حقائق قرب الله تعالى حين علم أنه يراه الفرح والسرور والنعيم والمسارة في طلب رضاه والقربة ليراه منافساً راغباً ، يريد القربة إليه ، والمبالغة في محبته .

والصابر في وقت بلواه ومصيبته وما يتحمله لسيده : مما يقربه من ثوابه ، حين سمع الله عز وجل يقول : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)
وقال تعالى : (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)^(٣)
سهل عليه عند ذلك معالجة الصبر واحتمال مؤنته .

وكذلك أهل كل مقام عبدوا الله تعالى على القربة ، وذلك حين أيقنوا وهم الذين لا يكادون يصلون ولا يرجعون .

وأما العامة من الناس فإنهم عملوا على ما انتهى إليه من الأمر والنهي ، على رجاء ضعيف فخلطوا ولم يحققوا ! .

فمن صدق الأنس ما يروى عن عروة بن الزبير رحمة الله عليه : أنه

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الخشية : الخوف عن علم ، قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

(٣) سورة الطور : ٤٨

خطب إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، ابنته ؛ وهو يطوف ببيت الله الحرام ، فلم يجبه ابن عمر ، ولم يرد عليه جواباً ، ثم لقيه عبد الله بعد ذلك ، فقال له : « إنك كلمتني في الطواف ونحن نتخيل الله بين أعيننا » .

فالمستأنس : كأنه ينظر إلى ما اشتاق إليه المشتاق :

ويروى عن عبد الواحد بن زيد البصرى رحمه الله تعالى ، أنه قال لأبي عاصم الشامي رضى الله عنه ورحمه : أما تشتاق إلى الله تعالى ؟ قال : « لا » إنما تشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائب شاهداً فأبى من تشتاق ؟ فقال عبد الواحد : سقط الشوق :

وروى عن داود الطائي ، رحمه الله تعالى - وكان من المسلمين الذين أجمعوا على صدقه وعدالته - قال أيضاً : « إنما تشتاق الغائب » .

قال بعض العلماء رحمه الله : وإنما قالوا : هذا من حقائق الوجود لقرب الله عز وجل ، كأنهم معه ، إذ كان معهم شاهداً لا يغيب ، وذلك من الله تعالى تسكين وتطمين . ورحمة وراحة ، عجلها لهم في الدنيا ، وإلا فما الذى وصل إليهم من الله عز وجل من قربه ؟ !

فمن علامة المستأنس بالله تعالى ، وبقربه أن يكون واجداً^(١) لذكر الله عز وجل في قلبه ، واجداً لقربه منه لا يفقده على كل حال ، وفي كل

(١) واجداً المقصود هنا الموحد صد المدوم .

وقت وكل موطن^(١) ، ويكون الله عز وجل وقربه السابق إليه قبل الأشياء ، وذلك إذا سكن قلبه نورُ قرب الله تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء ، وبه يستدل على الأشياء^(٢) .

وهكذا يروى عن عامر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، أنه قال : « ما نظرت إلى شيء قط إلا كان الله تعالى أقربَ إليَّ منه » .

ومن صفات المستأنس : أن يكون متبرماً بالأهل والخلقة كلهم ، مستعدباً^(٣) للخلوة والوحدة ، ويكون في البيت المظلم متبرماً بالمصباح إذا رآه ، بل يجيف بابه^(٤) ويسبل ستره ويواحد قلبه ، ويألف مليكه ، فيكون به أنيساً ، وبمناجاته متنعماً ، ويكون متفرغاً من طارق يطرقة فينغص عليه خلوته ، ثم تراه مستوحشاً من ضوء الشمس إذا دخل عليه في صلاته ، ويتناقل تلقاء^(٥) الخلق ويملهم ، ويكون لقاءهم ومجالستهم عليه غراماً^(٦) وخساراً ، فإذا جنه الليل^(٧) ، ونامت العيون وهذأت

(١) الموطن . الوطن (المكان) .

(٢) وفي الحديث القدسي الصحيح : « فإذا أحسته كت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . . . » متفق عليه

(٣) مستعدباً : واجداً لها حلاوة

(٤) يجيف بابه . يغلق بابه

(٥) تلقاه : تحاه (قبالة)

(٦) غراماً : عُرمًا

(٧) جه الليل . ستره

الحركات ، وسكنت حواس الأشياء^(١) ، خلا عند ذلك بينه^(٢) .
فهاج شجوه^(٣) . وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، وتنجز الموعود من
مأموله ، وماقد غذاه من فوائده وألطافه ، فظفر عند ذلك ببعض
سؤله ، وقضى بعض أوطاره^(٤) .

وكذلك المستأنس : تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفرع فيها
الناس ، فيستوى عنده العمران والخراب والقفار^(٥) ، والجحاة
والوحدة ، وذلك الذي استولى عليه من قرب الله عز وجل ، وعدوبة
ذكره ، ويغلب ماسواه ، من العوارض الظاهرة والباطنة .

فهذا ظاهر الأنس الذي يمكن أن يذكره ، ومابقي من مقامات
الأنس أكثر وأعز من أن يكون في كتاب ، إلا أن يجري منه شيء عند
المذاكرة مع أهله .
وبالله التوفيق .

(١) سكنت حواس الأشياء مبالغة في السكون .

(٢) الـث . المباحة المثنوة بالزمرات

(٣) الشحوة الـرحد .

.. (٤) قصي بعض أوطاره نال بعض بغيته ، ومصدق ذلك قوله تعالى « وتبتل إليه

تبتلا » .

(٥) القفار : الحرداء

مَقَامَاتُ الصَّادِقِينَ

كل قوم على أقدارهم
امتحان المؤمن
علامة الواصلين
مقام القرب

كل قوم على أقدارهم

واعلم أيها السائل عن الصدق وشرحه : أن الذى ذكرته لك ، إنما هو ظاهر الصدق والصبر ، والإخلاص الذى لا يسع الناس جهله ، ولا ترك العمل به ، خاصة المرئدين من الناس ، الطالبين لسلوك سبيل النجاة .

ومن الناس : من لا يكون له عند الله تعالى إلا هذا العلم الظاهر والعمل الظاهر ، فيفعل فى ذلك ويصدق فيه ، فيؤديه ذلك إلى رحمة الله تعالى وثوابه ، وله عند الله خير كثير .
ومن الناس من يصدق فى هذه المقامات التى ذكرناها وأكثر ، فيؤديه ذلك فى عاجل الدنيا إلى المقام الرفيع والعلم بالله والمقام الشريف ، فيصير إلى الروح والراحة ، والنعمة بمعرفة الله عز وجل ، والظفر بقرب الله تعالى ، والوصول إلى المنزلة الشريفة ، التى يدق^(١) وصفها وشرحها :

وقال بعض العلماء بالله تعالى : إن الله يكرم أوليائه بكرامة لا يطلع عليها العباد ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(١) يدق . دق الأمر يدق إذا غمض وحى معناه فلا يكاد يفهمه إلا الأذكاء

ألم تسمع لقول الله ، عز وجل : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (١) .

ويقال في الحديث : « فيعطون مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

وهكذا كل قوم على أقدارهم .

ومنهم من لا تنقضي كرامته من ثواب الله تعالى ، ومن النعم في الجنان ، ومنهم من لا تنقضي كرامته من الله تعالى ، والزيادة من به والنظر إليه .

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أدنى (٢) أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه ألقى عام يرى أقصاه (٣) كما يرى أدناه »

ومنهم من ينظر إلى وجه الله جل وعز كل يوم مرتين .
ومحال أن يكون هؤلاء سواء ، أو كان علمهم في الدنيا سواء .
قال جل ذكره : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) (٤) .
فلم يقع التفضل على الخلق إلا بفضل علمهم بالله تعالى والمعرفة به ،
ثم على قدر هذا الأنس : تفاوتوا في الدنيا والآخرة .
وبالله التوفيق .

(٢) أدنى : أقل :

(١) الإسراء : من الآية ٥٥ .

(٤) السجدة : ١٧ .

(٣) أقصى : أبعد .

امتحان المؤمن

قلت : فهل يصير العبد إلى حال يفقد مطالبة الصدق من نفسه ،
ويسقط عنه مؤنة الأعمال ، وأثقال الإخلاص ، ومؤنة الصبر ، ويكون
عاملاً بالصدق : فأخذ مما ذكرت وأكثر بلا اشتغال ولا تعب ؟
قال : نعم ، ألم تسمع الحديث الذي يروى : « إن الجنة حُفَّت
بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » .
ويروى في خبر آخر : « إن الحق ثقیل مرء^(١) ، وإن الباطل
خفيف وئیء^(٢) » .
والنفس مجبولة بحب هذه الدار والسكون إليها ، وحب الدعة^(٣)
والراحة فيها .
أما الحق واتباعه والعمل به ، والصدق وأخلاقه ؛ فذلك كله هو
خلاف محبوب النفس .
فإذا عقل العبد عن الله تعالى وفهم مادعاه إليه من العزوف^(٤) عن

(١) مرء . طيب .

(٢) وئیء . كثير مرضه : (صرره)

(٣) الدعة . الترك (حب الراحة) .

(٤) عرف عن الدار . انصرف عنها .

هذه الدار الفانية ، والرغبة في الدار الباقية ، حمل عند ذلك نفسه على احتمال المكارة : من ركوب طريق الصدق ، وعزم على بذل المجهود ، وصبر لله تعالى ، وكابد^(١) نفسه ، واستعان بالله تعالى ؛ فنظر الله تعالى إليه راغباً فيما لديه ، حريصاً على أن يرضيه ، وعاد عليه عند ذلك بلطفه وعونه ، فسهل عليه العسير مما استصعب من نفسه ، وأبدله بالمرارة حلاوة ، وبالثقل خفة ، وبالخشونة ليناً ودعة ، فسهل عليه قيام الليل ، وصارت المناجاة لله تعالى ، والحلوة بخدمته له نعيماً بعد شدة المكابدة ، وصار الصيام ، والظلم في الهواجر^(٢) : خفيفاً عليه ، حين ذاق عذوبة : مارجا من روح الله تعالى ، وحسن عاقبته .

وكذلك : تبدلت وسهلت : الأخلاق ، والأحوال ، عليه ، حين قام له من كل مقام عاناه وكابده لله تعالى ، التماس رضاه عوضاً مكانه من الخير ، فتغيرت عند ذلك أخلاقه ، وانتقل طبعه وهدأت نفسه وانتعش عقله ، وسكنه نور الحق فألفه ، ونفر عنه الهوى وطفقت ظلمته ، فصار عند ذلك الصدق وأخلاقه طبعاً له ، لا يحسن غيره ، ولا يألف إلا إياه ، ولا يسكن إلى غيره ، واكتنفته^(٣) العصمة من ربه . فضعف عند ذلك كيد عدوه ، وصار مغلوباً ، حين ماتت دواعيه

(١) كابد نفسه حمل نفسه المشقة .

(٢) الظلم في الهواجر : شدة العطش في الحر الشديد .

(٣) اكتنفته العصمة . أحاطته من كل جانب .

من الباطل ، وكل^(١) سلاحه ، بموت الهوى وانقياد النفس ، حين تخلقت بأخلاق الرحومين .

قال الله جل ذكره حين أخبر عن يوسف عليه السلام : (إنّ النفس لأماره^(٢) بالسوء إلا مارحم ربي)

فأنفس الأنبياء والصدّيقين عليهم السلام مرحومة ، وكذلك كل مؤمن على حسب قوة إيمانه ، فسقطت عند ذلك عن البعد معاناة الصدق ، وثقل العمل به ، فصار عاملاً بالصدق الذي ذكرناه ، وأكثر بأضعاف كثيرة بلا مؤنة ، بل صار ذلك نعيًا وغذاء ، إن تركه توحش من تركه وتفزع^(٣) من فقدته ، فصار الصدق وأخلاقه صفة له ، لا يحسن غيرها ، حتى كأنه لم يزل كذلك .

ومصداق ذلك في الكتاب والسنة موجود .

قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا ، وإنّ الله لمع المحسنين^(٤)) .

وقال عز وجل : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلِيُمَكِّنَ لَهُمْ

(١) كل السيف . أى لم يعد يقطع .

(٢) لأماره بالسوء : تم بالسوء .

(٣) تفزع من فقدته : كثر خوفه .

(٤) العنكبوت : ٦٩ .

دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونى لا يشركون بى شيئاً^(١) .

وقال عز وجل : (ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض)^(٢)
وقال عز وجل : (وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا ، لما صبروا)^(٣)
أى عن الدنيا .

وإنما أردنا أن نثبت المجاهدة للنفوس ، وبذل الجهد^(٤) فى الصدق .
ثم إن المعونة من الله تأتى من بعد ذلك ، والحجة فى ذلك قائمة فى السنن .

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير سورة « طه » قال : معنى « طه » : يارجل ، بلسان الحبشية : (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)
قال : لتعنى به .

أفلا ترى أنه حين قام ﷺ لله عز وجل شكراً ، حتى تورمت قدماه شكراً لله تعالى ، فأمره بالهدوء ؟

(١) النور : ٥٥

(٢) القصص : ٥ .

(٣) السجدة : ٢٤

(٤) الجهد . الوسع والطاقة .

وقد روى : « أن النبي ﷺ كان يتعبد في جبل حراء الشهر وأكثر » (١)

وكذلك يروى : « أن النبي ﷺ كان يحرس ويحفظ من عدوه ، حتى نزلت هذه الآية : (والله يعصمك من الناس) فنحى (٢) الحرس تصديقاً لقول الله عز وجل حين ذكره له : أنه يعصمه ، فأيقن وسكن ﷺ .

وكذلك المؤمنون يأتيهم اليقين بعد الضعف ، وكذلك النبي ﷺ كان يخرج إلى الغار بالجبل الذي يقال له : ثور ويختبئ هو وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ثم يخرجان إلى المدينة هارين في السر . وهذا إنما كان وقت البلوى من الله تعالى له ؛ إذ كان عليه السلام في مقام الصبر والمجاهدة ، ثم من بعد ما صار إلى المدينة عليه السلام تغزوه قریش يوم وقعة أحد فتقتل أصحابه وتكسر رباعيته (٣) عليه السلام ، ويدمى وجهه .

أفلا ترى أن الهوى (٤) والمحنة لازمة له ، وللمؤمنين طالبة لهم ؟ ثم إنه ﷺ يخرج هو وأصحابه ، فيهل (٥) ويسوق الهدى ، يريد

(١) رواه البخارى

(٢) محى الحرس عزلم

(٣) رباعيته السن التي بين الفية والباب

(٤) مارعة النفس

(٥) يهل : يرفع صوته بالتلبية (لبيك اللهم لبيك - في الحج)

العمرة^(١) فتمنعه قريش من دخول مكة ، حتى اضطرب الناس ، فأحل^(٢) بالموضع الذى يسمى الحديبية ورجع ولم يدخل الحرم !! ثم انظر الآن حين انقضت مدة البلاء وجاء النصر كيف دخل مكة ، ﷺ فقتل وأمن من شاء ، ثم بشر عندها بالمغفرة ، فأمر الله عز وجل : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر)^(٣) الآية

وهذا موسى ﷺ ومزلته عند الله ، فانظر إلى عظيم بلائه ، حين حملت به أمه ، كيف ذُبِحَت النساء ، وقتل الولدان ، فى طلب موسى ، عليه السلام ! فرجع بلاؤه على الخليفة .

ثم أخبر الله عز وجل عنه فقال : « فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ؟ »^(٤) .

وقال : (إن المملأ يأترون بك ليقتلوك فإخرج إلى لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال : رب نجنى من القوم الظالمين ؟)^(٥) ثم انظر أيها المريد ، الطالب للوصول إلى كرامة الله عز وجل ،

(١) العمرة : الحج الأصغر (وهو مأخوذ من الاستعمار أى الزيادة) .

(٢) أحل : حرج من إحرامه .

(٣) الفتح : ١ ، ٢ .

(٤) القصص يترقب . يتنظر

(٥) القصص ٢٠ ، ٢١ .

بالتواني والتفريط^(١) . ألم يبلغك أن موسى ، عليه السلام لم يصل إلى امرأته حتى رعى الغنم وخدم عشر سنين ، ثم أرسله الله تعالى وكلمه وأظهر برهانه ؟ !

فقال : (لانتخافا إننى معكما أسمع وأرى) ؟ !

محين قال لهما : « لانتخافا » هل خافا ؟ ألم يجعل لهما آية في عصا ، فظهرها^(٢) على كيد السحرة ، وهزما الجيوش ، ثم أداله^(٣) الله تعالى من أعدائه ، وأغرقهم أجمعين ؟ !

وهذا يوسف عليه السلام حين أخبر الله تعالى عنه : أنه يلقي في الجب ثم يباع بثمن بخس : دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين ، ثم لم يفارقه البلاء ، حتى فتن بامرأة العزيز وسجن السنين الكثيرة .
ثم انظر كيف أداله الله تعالى على إخوته ، ثم أخرجهم الله تعالى ، فأظهر برهانه وجعله على خزائن الأرض .

وكذلك الأنبياء الذين ذكرهم الله ، عز وجل ، عليهم السلام .
وفى هذا بلاغ لمن فهم عن الله عز وجل وعن العلماء الأدلاء^(٤) على

الطريق إلى الله عز وجل !!

(١) التواني والتفريط . التواني من تواني توابياً إذا لم يهتم ولم يحتصل بالأمر ، والتفريط من فرط تفريطاً إذا ضيعه .

(٢) طهر : تغلبا .

(٣) أداله الله : جعل العلة له على عدوه .

(٤) الأدلاء . المرشدين الكاشفين

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما روى عنه : أنه مأسلك طريقاً قط إلا سلك الشيطان طريقاً غيرها ، وقال : « إن الشيطان ليفر من جبين عمر » وقد كان بالأمس من اللات والعزى فى أمور ترضى الشيطان !

فانظر كيف أخلص الله تعالى وصدق إن كان منه العدو وباطله .
وروى عن ثابت البناني رحمة الله عليه أنه قال : « كابدت ^(١) القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة »
وقال بعض الحكماء : « إن القوم لم يزالوا يعضون ^(٢) الصبر حتى صار عسلاً » .

وقال بعض الحكماء : « إن دون ^(٣) كل بر عقبة ، فمن تجشم ركوبها أفضت ^(٤) به إلى الراحة ، ومن هاله ^(٥) ركوب العقبة فلم يرقها ^(٦) بقى مكانه ! »

قلت : فلا بد من هذه البلوى والاختبار ؟
قال : لا بد منه لكل عبد رفيع القدر عند الله عز وجل ، من أهل

(١) كابد . تحمل المشاق

(٢) يعضون الصبر : يتحملون ألمه .

(٣) دون كل ير . قبل كل ر

(٤) أفضت به انتهت به

(٥) هاله . أزعجه .

(٦) يرقها : يصعد إليها

المعرفة بالله ، عز وجل .

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ : « أنه سئل : من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ثم ، الأمثل ، فالأمثل » (١) .

يبتلى العبد حسب دينه : فإن كان في إيمانه قوة شدد عليه البلاء ، وإن كان في إيمانه ضعفٌ خفف عليه البلاء .

فالأنبياء عليهم السلام ، بادأهم الحق عز وجل ، بكرامة الرسالة ، وبشرهم بالنبوة ، ثم حمل عليهم البلاء ، فاحتملوا البلاء بقدر الكرامة التي أكرمهم بها ، حتى راضهم (٢) بالبلاء وتفقهوا فيه ، وبه صبروا لله عز وجل ، حتى نصروا .

والمؤمنون قامت لهم الرغبة في ثواب الله عز وجل الذي وعدهم ، والرغبة من عقابه الذي به تواعدهم ، فصبروا لله تعالى وأخلصوا وصدقوا ، فشكر الله تعالى لهم ذلك ، وأظهر برهانهم على الخليفة ، فجعلهم علماء يقتدى بهم ، وأسكن اليقين قلوبهم .

ثم إن المؤمنين ، بعد ذلك على وجهين :

فمنهم : من يبدؤه الله تعالى ، بالنعمة والمنة والموهبة ، فيهب له

(١) رواه الطبراني بسند حسن . وله شواهد في مسند أحمد ، والمخاريق والترمذي ، وابن

ماجه

(٢) راضهم بالبلاء أسلس قيادهم به . أي جعل أنفسهم راضية بالبلاء حتى صار العلم

طائعها والدعاة من سحاياها .

الإجابة ، ويحب إليه البر ، ويسهل عليه الطاعة ، ويبدؤه بالمنزلة الكثيرة . فإذا تمكن الروح في قلبه ، واستعذب الأعمال الصالحة حمل عليه ، بعد ذلك البلاء والاختبار والمصائب والضراء والعسر والشدة نعم . ثم تؤخذ منه الحلاوة التي كان يجدها ، والنشاط في البر ، فتثقل عليه الطاعة بعد خفتها ، ويجد المرارة بعد الحلاوة ، والكسل بعد النشاط ، والكدر بعد الصفاء ، وذلك لعله البلوى والاختبار ، فتعثره الفترة (١) .

فإن جاهد الآن وصبر واحتمل المكروه ، صار إلى حد الراحة والبلوغ ، وأضعف له البر ظاهراً وباطناً ! وهكذا يروى في الحديث : « إن لكل شرة (٢) فترة ، فمن كانت فترته إلى سنة (٣) : فقد نجا ، وأن كانت فترته إلى بدعة (٤) فقد هلك » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « طوبى لمن مات في الثأنة بدء الإسلام وشرته »

ويروى في الحديث : « إن الله عز وجل ، يأمر جبريل عليه السلام ، فيقول : اقْبِضْ حُلَاوَةَ الطَّاعَةِ مِنْ قَلْبِ عَبْدِي ، فَإِنْ تَأَسَّفَ عَلَيْهَا فَرُدَّهَا عَلَيْهِ وَزِدْهُ وَإِلَّا فَدَعْهُ ! »

(١) الفترة : انكسار الحدة وذهاب النشاط .

(٢) الشرة : الحدة .

(٣) السنة : الطريقة التي مات عنها الرسول ﷺ والصحابه والتابعون .

(٤) البدعة : ما خالفت السنة . والحديث رواه البيهقي .

ويروى في حديث آخر: «إن الله عز وجل، يقول: إن أدنى^(١) ما أصنع بالعالم إذا ركن إلى الدنيا أن أنزع حلاوة مناجاته إياي من صدره، وأن أدعه في الدنيا حيران».

وفي خبر آخر: إن العبد إذا ركن إلى الدنيا بعد العلم والمعرفة والعلم بالبصيرة، يقول الله عز وجل، لجبريل عليه السلام: «انزع حلاوة مناجاته إياي من صدره،^(٢) وأعطه من الدنيا مقصماً^(٣) يشتغل به عني».

أما العبد الثاني: فإنه يبدأ بالصدق والأعمال الصالحة وأخلاق الصدق، ثم يعمل في ذلك ماشاء الله عز وجل، فتأتيه الكرامة بعد ذلك، فيعطيه الله تعالى ما لم يرجه ويحتسبه:

وهكذا عامة البدلاء: لاتأتيهم الآيات والكرامات إلا من بعد العمل وبذل الجهد، وأكثر ما لم يحتسبوا ما أتاهم الله تعالى به، حين بدأهم الله عز وجل به.

ومنهم من اطلع على القوم وقيل له: إنك منهم، فعمل بعد أن أخبر بذلك.

ومنهم من يعرف نفسه ولا يعرف غيره.

ومنهم من يعرف الجميع بأسمائهم وقبائلهم.

(١) أدنى: أقل.

(٢) مقصماً: مقطعاً.

فإن كنت أيها السائل عن الصدق وشرح الطريق ، قد عملت في الصدق ماذكرته لك من العلم ، وباشرت هذه المنازل ، ونزلت هذه المراحل ، وقطعت هذه الأسباب التي ذكرناها ، فأفضيت منها إلى الراحة والسكون والطمأنينة ، فأنت محاط بالعصمة ، وماض على سبيل الاستقامة والمحجة البيضاء ، التي توردها على الله عز وجل ، فهنيئاً لك ، وبارك الله فيك ، فأنت من أمرك على بصيرة .

فإن كنت قد باشرت الصدق وعملت في كل مقام البر بقدر طاقتك وما أذن الله تعالى لك ، وعانيت الأمور ، فعسى أن يكون الله قد رآك ، وقد أبليت ^(١) فيما بينك وبينه ، عذراً لرغبتك في التقرب إليه ، فصح إليه افتقارك ، حين علمت أنه لا بد لك منه ، فألقيت كنفك ^(٢) بين يديه ، فعسى أن يكون قد رآك في بعض الأوقات إليه قاصداً راغباً ، بنية صحيحة وعزم صادق ، علم أنك لا تمل ولا تنبرج من التعرض له دون بلوغ منك ، فجاءك ببره ، وأعطاك بعض الأمل منه ، بل جذب قلبك إليه جذبة ، فأسكنه اليقين ، وأشرف به على الآخرة ، فسهل عليك عند ذلك العسير ، وألان لك من نفسك الصعب الذلول ، ثم اختصر بك الطريق إليه ، فقرّر قرارك وقامت حياتك وطاب عيشك . فذلك تعرف السيّد الكريم الذي لا تنقصه المواهب ، ولا ينقد

(١) أبليت حرجت من الامتحان فائزاً متصراً

(٢) كنفك - حاسك .

ناثله ، لأنه البرُّ الرحيمُ ، الذى تَسْمَى الشكور ! !
 فيا عجباً كلَّ عجب ، وعجب كلَّ متعجب ، ولا عجب ، إذ كان
 السيّد الكريم يفعل ما يريد .

ولكن موضع العجب يلزم العبيد من شكره لعبيده ، الأمر الذى
 بدأهم به ودلهم عليه ، واستعملهم به وحفظ عليهم ، ثم أحبهم عليه
 ونسبه إليهم فعلا ، ثم كتبه لهم فى المقبول ، ثم أثنى به عليهم بما وعدهم
 عليه الجزاء ! !

فهذا البر الآن من الكريم لانقف عليه العباد ، بل تحيرُ فيه العقول !
 هيئات أيها السائل المرید ! ! أستيقظ من طول هذه الرقدة ، إنما
 هذه أسماء علقها عليهم أنهم فاعلون ، وأمور نسبها إليهم وما أظنها إلا
 له ، والتوفيق والصنعة منه فى صنعته التى تفرد بإنشائها وإبدائها لما شاء ،
 وهو الفعال لما يريد ، الذى يصيب برحمته من يشاء ! !

والعقلاء عن الله عز وجل ، من عباده يتلقون الأمور على هذا
 الوصف والشرح ، ويرجعون فى الأشياء إليه ، ويرونها منه سبحانه ،
 لأنه كان بدأها ، وعليه تمامها ، فهو القائم بها وإليه مرجعها ! !
 و (لله الأمر من قبل ومن بعد)

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

وأما الضعفاء من الخلق ، فإنهم يروون لأنفسهم هاهنا فعلا هيئات
 إذا صدقوا وأخلصوا طلبوا الجزاء من الله عز وجل على ذلك ، وذلك

مبلغهم من العلم ، ولهم عند الله تعالى خير كبير .
وأذكر لك مقاماً آخر ، فاعرض نفسك ، وغيرك عليه ممن تراه من
العبيد ، يشير إلى المعرفة والعلم ، والسكون إلى الله عز وجل .

فإن كنت قد شربت بكأس المعرفة بالله تعالى ، فأطلعك الله بصفاء
اليقين ، على ماسبق لك عنده في القديم ، حين أرادك قبل أن تريده
وكان لك عالماً قبل أن تعرفه ، وذكرك قبل أن تذكره ، وأحبك قبل أن
تحبه ، فهاج منك الآن الشكر له على أياديه ^(١) ، فألزمت قلبك المحبة
على أياديه ، فأثرت وارتاحت روحك إليه ، فألفت قربه ، فصرت الآن
إليه تأوى ، وفي قربه تسكن ، فهو لا يغيب عنك ولا تفقده ذاهباً وجائياً
وقائماً وقاعداً ، ويقظان وراقداً ، وعلى كل حال .

أما سمعنا ما يذكر عن النبي ﷺ حين يقول :

« تنام عيناى ولا ينام قلبي » ^(٢)

وكذلك المؤمنون على أقدارهم .

فما أعظم شأنك ^(٣) أيها العبد وأجل خطبك ، إذ كان السيد الكريم
الكبير المتعال الغنى الحميد ، ذكرك ذكراً بعد ذكر فخصك ، فأجزل

(١) أياديه : نعمه .

(٢) بسند ضعيف ابن سعد عن الحسن مرسلاً .

(٣) شأنك : قدرك .

لك العطية ، إذ ذلك على محبته فآثرته ، فكان هو بُعِثْتَكَ ومرادك (١) ،
ومنتهى رغبتك وليس منك شيء تملكه للعباد ، ولكنها موهبة ، وهي
أول أعلام الوصول إلى الراحة يكون الله مراد العباد لغيره .
ومن علامة ذلك : أن يكون هو الحافظ عليك ، ما استودع قلبك
من ذكره ومودته ، وأوجدك من قربته وتعطف عليك ببره ، فسامحك
الآن ، فسقطت عنك حركات الطلب للظفر أو التقرب ، إلا حركة تهيج
منك الآن شكرياً له على أياديه ، وإيجاباً لحقه وألفه (٢) له غيره ، والتنعم
بمناجاته ، ولذة خدمته ، وما أراد فيك من تعبه بمشيئته ، ليريك
موضع قُدرته ، واختلاف أحكامه عليك لتفقه عنه ، وأنت في ذلك :
واجدٌ لقُربه ، وغيرٌ متشاغل بحركاتك ، ولا طالب منه عليها جزاءً
وثواباً ، كما أراد العباد الزهاد ، ولكن تعمل لله تعالى حباً وكرماً ، لأنه
خلقك كرمًا واستعملت بأخلاق الكرماء .
وبالله التوفيق .

(١) مرادك : طلبتك واختيارك .

(٢) ألفة : محبة واثلاًفاً ، أى الثاماً واجتماعاً .

علامة الواصلين

وهذا الآن جوابُ لك آخر ، على مسألتك ، حين قُلت : هل يصير العبد إلى حالٍ يفقد مُطالبَةَ الصَّدَقِ من نفسه ؟ وهى علامة الواصلين ، فافهمها .

أما علمت أيها المريد : أن الورع والزَّهد والصبر والتوكل والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والمحبة والشوق والأنس والصَّدق في المواطن والإخلاص فيها ، وكل خلقٍ حسن جميل : إنما هى منازل نزها العمال لله ، عز وجل ، ثم ارتحلوا منها إلى غيرها ، حتى وصلوا إلى المنى من قُرب سيدهم ؟ !

فما أنت وذكرُ المتزل الذى نَزَلته حتى أوصلك إلى بُغيتك ، إن كنت واصلاً ظافراً ببعض حظك من مطلوبك ؟ فأنت كأنك مشاهدُه . فعليه الآن فازدَدْ إقبالا ، وإليه فأدِم النظر وأصغ إليه بالآذان الواعية ، فإنه أقربُ إليك منك إلى نفسك ، فما أنت الآن وذكر الصديق ؟ ! وإنما هو منزل من منازل الطالبين .

وبعدُ ، فإن كان قد فتح لك الباب الذى كان بينك وبينه مغلقاً ، وكشف عن قلبك السَّتر الذى كان عليه مرخى ، فأوجدك قُربه ، ولاطفك ببعض التأنس ، فعساك أن تكون قد صرت إلى بعض سؤلِكَ فقرّر قرارك .

وإن كنت وغيرُك من الطالبين : إنما فقدت وجودَ مطالبةِ الصدق ،
وما أشبهه من الأمور من وجودك لتقرب الله عز وجل والتشاغل به ،
فتلك بُغْيَةُ العارفين بالله عز وجل .

وكذلك فافهمها من نفسك ومن غيرك ، ولا تتخذ عن نفسك من
حظك من ربك .

واعلم أن الواصلين إلى الله عز وجل ، وأهل القرب منه ، الذين قد
ذاقوا طعم محبة الله تعالى بالحقيقة ، وظفروا بحظهم من ملكهم ؛ فن
صفاتهم : أن الورع والزهد والصبر والإخلاص والصدق والتوكل والثقة
والحبة والشوق والأنس والأخلاق الجميلة ، وما لم يكن يمكن أن يوصف
من أخلاقهم ، وما استوطنوه من البرِّ والكرم فذلك كله معهم ،
وساكن في طبعهم ، ونحني في سرائرهم ، لا يحسبون غيره ، لأنه
غذاؤهم وعادتهم ، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً ، وعملوا فيه
حتى ألقوه ، فلم يكن عليهم بعد الوصول كلفة^(١) في إتيانه والعمل به ،
إذا حل وقت كل حال ، لأن ذلك غذاؤهم ، كما ليس لهم في أداء
الفرائض ثقل ولا علاج^(٢) .

وذلك لما غلب على قلوبهم من الايثار لله عز وجل ، والتقرب منه ،

(١) كلفة : ما يكلف به الإنسان على مشقة .

(٢) ومنه قوله ، في شأن أحد الصحابة . « قام العبد صهيب لولم يخف الله لم

يؤمنه » .

فهم عاملون به بلا مؤونة ، بل بلا تشاغل بالأعمال الظاهرة ، لأن
 الخدمة والأعمال الظاهر : إنما تقع على ظاهر الجوارح .
 فافهم هذا الموضوع ، والقلوب بعد ذلك ذاهلة ، بل هي بالله
 مشغولة للذى استولى عليها من قرب الله عز وجل ، والمحبة لله والشوق إليه
 والرهبة منه والتعظيم له والإجلال .
 فافهم أيها المريد ما ألقيت إليك وتدبره تجده بيناً معروفاً ، إن شاء الله
 تعالى .

فأحضر الآن عقلك ، واجمع همك ، ولا تسمع العلم وأنت
 عازب ^(١) الفهم عن الذى يُلقى إليك ، فلا عذر لك الآن بعد العلم
 والبيان ، بل قد تأكدت عليك الحجة ، فاعمل فى التخلص إلى الله عز
 وجل ، لعلك تتخلص ، فتقر عينك بمعرفته فى هذه الدار عاجلاً قبل
 الآجل .

نعم ، ثم يدوم حزنك ، ويشد كربك ، وتزداد كل حال كنت
 تجدها أضعاف ما كنت تجدها قبل المعرفة والوصول .
 ومصدق ذلك فى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ قال الله عز
 وجل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .
 وقال النبى ﷺ : «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» ^(٢)

(١) عازب : غائب .

(٢) خشية : خوف .

وقال ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً
ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون^(١) إلى الله »
وعلى حسب ذلك كان ﷺ
وكذلك العارف بالله ، القريب من الأشياء ، الموفق في كل حال
يحل فيها بما يكون فيها : بخلاف غيره من الناس .
ثم على هذا القياس ، وفي هذا بلاغ لمن فهم وتدبر .
والله التوفيق .

(١) تجأرون : ترفعون أصواتكم بالدعاء . والحديث متفق عليه إلى قوله « كثيراً » ورواه
بهذه الزيادة أحمد والحاكم .

المقربون

قلت : متى يألف العبد أحكام مولاه ، ويسكن في تدبيره واختياره ؟

قال : الناس في هذا على مقامين ، فافهم .
فن كان منهم إنما يألف أحكام مولاه ، ليقوم بأمره الذى يوصله إلى ثوابه ، فذلك حسن وفيه خيرٌ كبير ، إلا أن صاحبه يقوم ويقع ، ويصبر مرة ويجزع أخرى ، ويرضى ويسخط ، ويعبر ويراجع الأمر ، فذلك يؤديه إلى ثواب الله ورحمته ، إلا أنه معنى في شدة ومكابدة .
وإنما يألف العبد أحكام مولاه ، ويستعذب بلواه ، ويسكن في حسن تدبيره واختياره بالكلية بلا تلكؤ^(١) من نفسه : إذا كان العبد : آلفاً لمولاه ولذكره ، وهو له محبٌّ وأدُّ ، وبه راض ، وعنه راض . فهل يكون ، أيها السائل ، على المحب مؤونة فيما حكم عليه محبوبه ؟ كيف ؟ وإنما يتلقى ذلك بالسرور والنعيم !!
هكذا قال في الخبر : حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .
وقال في خبر آخر : غنية الصديقين : مازوى^(٢) عنهم من الدنيا »

(١) تلكؤ : تباطؤ

(٢) زوى : جمع والمعنى : (نقى عنهم جمع الدنيا) .

وروى عن الله عز وجل في بعض ما أنزل من كتبه: «أَنَّه قال :
«معشر المتوجهين إلىَّ بحبي ، ما يضركم ما نأبكم من الدنيا ، إذا كنتمُ
لكم حصناً ، وما يضركم من عاداتكم إذا كنتم لكم مسلماً ؟ ! »
فمن كان مع الله عز وجل ، بهذ الأحوال في المواطن ، كيف يكون
إلا على نحو ما ذكرناه !!

ولقد قال بعض العلماء بالله تعالى ، وأهل القرب منه : إن القوم
الذين ذكرنا بعض أحوالهم لا يرضون من أنفسهم أن تكون تقاوم الأمور
عند حلولها ، والأحداث عند نوازها ، حتى تتمكن من قلوبهم ،
فيحتاجون أن يصبروا عليها أو يرضوا بها ، بل الصبر والرضا لهم ، تابع
مضاف ، لأنهم طالبوا من أنفسهم صحة الشغل بالله تعالى ، والانفراد
به ، فلم يرضوا عند ذلك أن تكون الأمور النازلة بهم تقاوم ذكر الله
تعالى ، حتى تساويه : (والله غالب على أمره) .

وبعد ، فإنهم عبيد محكوم عليهم ، وإن أقل القليل في الأوقات
يملكهم ، حتى يقروا لله تعالى ، بالضعف ويسألوه العون ، فلا تعجب ،
إذا بدا^(١) لك من أحد منهم شيء من ذلك ، فهذا النبي ، ﷺ ،
يقول : «إني بشر ، اللهم من دعوت عليه فاجعل دعائي عليه رحمة » .
وسمعت بعض العلماء بالله عز وجل ، يقول : إن من شدة اتصال
العبد بمولاه ووجهه به ، ونزوله في قربه لا يحد طعم اختلاف الأحكام ،

(١) بدا - ظهر .

بل يكون معه النظر الحقى إليها ، حتى كأنها على غيره أو بغيره نازلة .
فهذا غاية من التلقى للأحكام ، فافهم هذا الموضوع وتدبره ، فإنه
يؤدبك إلى علم السكون إلى الله عز وجل ، إن شاء الله .
وإنما يكون السكون إلى الله تعالى ، والطمأنينة على قدر القرب من
القلب .

ومن شرح السكون إلى الله تعالى ، فقد حس الأشياء من القلب
وسكون دواعى الهم ، وهدوء الضمير مع الله وإلى الله تعالى !
فعند ذلك تكون الأمور من الدنيا والآخرة ، وأعمال البر والطاعة
طالبة للعبد ولاحقة به ، وإليه محتاجة وإليه واصله ، بل إليه موصولة ،
لأنه عزف عنها^(١) واستغنى بمالكها فوصلت إليه .
قال الله عز وجل : (أليس الله بكافٍ عَبْدَهُ)^(٢)
وبلغنا أن الله عز وجل ، أوحى إلى عيسى عليه السلام : « أنزلنى
منك كهملك واجعلنى ذخراً لك فى معادك »^(٣) .
وروى عن النبى ﷺ : من غير طريق أنه قال : « من جعل الهم هماً
واحداً^(٤) كفاه الله سائر همومه » .

(١) عزف عنها : انصرف عنها .

(٢) الزمر : ٣٦ .

(٣) معادك : آخرتك .

(٤) فى روايات أخرى : من جعل الهم هماً واحداً هو المعاد . . أو هو التقوى .

وروى عن الفضيل بن عياض رحمه الله ، أنه قال : « ماعجبت من عبادة ملك مقرب ولاني مرسل إذا كان الله عز وجل قواهم على ذلك » .

وهكذا من ذكرناه من القوم وصفاتهم .
فن نظر إلى عبيد الله تعالى ، بنفسه وقياسه ، وبأنفسهم ما يشبههم فهم عنده في موضع النقص أبداً .
فاذا نظر إليهم بالله عز وجل ، وبقوته وتدبيره فما يعجب ؟
وبالله التوفيق .

مسألة تدل على ما ذكرناه ، قلت : فما تقول في عبد كان لا يتكلم ولا يتحرك ، ولا يعمل عملاً إلا طولب عليه في ذلك ووجد النقصان ولحقته الفترة والقسوة في أوقات نيله وأكله وشربه ، وكذلك في جميع أحواله ، ثم صار إلى حال يتكلم ويتحرك في الأمور ؛ ويقبض ويبسط ، يأكل ويشرب ، ولا يستوحش ولا يجد مطالبة ولا يرى نقصاً كما كان يراه قبل ؟

فقال : « هذه مسألة حسنة فافهمها ، فإحوج المريدين العمال إليها » .

اعلم أن المريد الطالب للصدق ؛ فهو عامل في جميع أموره بالمراقبة لله عز وجل بالقيام على قلبه وهمه ^(١) وجوارحه ، بالمحاسبة .

(١) المم : أول العزيمة

« فهو جامع لهمه حذراً من أن يدخل في همه مالا يعنيه حذراً من

الغفلة »

فالحركات في ظاهر جوارحه بجوارحه تنقصه ، والهمم الداخلة عليه في قلبه تكدر همه ^(١) ، فهو عند ذلك يتفرغ من الحركات التي ذكرت ، وإن كانت في حق ويحق ، وذلك لما غلب على قلبه من محبته أن يكون ذكره دائماً ، وهمه واحداً .

فإذا دام على ذلك تفتن قلبه وصفت فكرته ، وسكن النور قلبه وقرب من الله تعالى ، فغلب على قلبه وهمه !

فعند ذلك يتكلم والقلب يغلى بالذكر لله عز وجل ، وقد كمنت ^(٢) في سويداء ^(٣) قلبه محبة الله تعالى ، فهي لازمة للضمير لاتفارقه . فمن شأنه في سرائره أن يكون ناعماً بالمخاطبة لله الخفية ، والمطالعة الشجية والمحادثة الشهية .

وهكذا يكون في أكله وشربه ونومه وكل حركاته ، لأن قرب الله تعالى ، إذا تمكن في قلب العبد غلب على ماسواه من باطن عوارض الهمم ، وظاهر حركات الجوارح ، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً ،

(١) همه : انشغاله .

(٢) كمنت : اخفت .

(٣) سويداء قلبه : حبة قلبه .

وآخذاً ومعطياً ، والغالب عليه هم ماقد ملك ضميره من محبة الله عز وجل وقربه .

ألم تر نفسك ، أيها المرید كيف تملك قلبك أحيانا هم من أمر الدنيا ، فيسلبك عن كل شيء ، حتى يكدر عليك العيش ، فتكون ساهياً إلا عن ذلك ، حتى تفقد النوم ؟

فأمر الله عز وجل : أخرى عند العقلاء وأولى .

فعندما ذكرنا صحبت العبد من الله عز وجل العصمة ، فكان محفوظاً من نقصان .

خاتمة الكتاب

فافهم أيها السائل : ما يلقي إليك وتدبره ؛ ينفعك إن شاء الله ،
تعالى .

وبعد فاعرض مذكرت لك على ماسألت عنه ؛ فإن أجزاك وكان
مافقدت وماوجدت من جنس مذكرت ، فاشكر الله تعالى يزيديك .
ولاينحني على العلماء ما يحدث عندك ، فليس بين المريد ومعلمه رثاء ،
إن شاء الله تعالى ، وأنى بمؤدب بصير جهيد في زماننا هذا .
وبالله التوفيق .

ناسخ الكتاب

تم كتاب «الصدق» للشيخ العارف «أبي سعيد الخراز» ،
رحمه الله ، ونفع بأنفاسه ، وسلم عليه سلاماً طيباً مباركاً فيه .
والحمد لله وصلواته على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .
كتبه العبد الضعيف الفقير : إسماعيل بن سودكين ، رفق الله به ،
وأخذ بيده ورحمه ورحم والديه وجميع المسلمين .
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفهرس

مقدمة ... ٣

١ - سبيل النجاة ١٥

الإخلاص ... ٢٠

الصبر ... ٢٥

الصدق ... ٢٨

٢ - أبواب الصدق ٣٣

في معرفة النفس ٣٥

في معرفة العدو ٣٨

في الورع ٤١

في الحلال الصافي ... ٤٣

في الزهد ٥٤

في التوكل على الله ... ٦٣

٧١	في الخوف من الله
٧٣	في الحياء من الله
٧٦	في شكر الله
٧٩	في المحبة ..
٨٣	في الرضا .
٨٧	في الشوق إلى الله
٩٠	في الأنس بالله...

٣ - مقامات الصادقين

٩٥					
٩٧	كل قوم على أقدارهم
٩٩	امتحان المؤمن
١١٤	علامة الواصلين ..
١١٨	المقربون
١٢٤	خاتمة الكتاب
١٢٥	ناسخ الكتاب

١٩٨٨ / ٥٦٩٦	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠١-١٩٠٤-٠	الترقيم الدولي

١ / ٨٨ / ١٠٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

